

الرواية الفلسفية عند إرفين يالوم

Irvine Yallum's Philosophical Novel

^{1*} عبد الكريم عنيات، ² إيمان قرقي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد لين دباغين ، سطيف 2.

تاريخ النشر: 2020/12/30

تاريخ القبول: 2020/09/23

تاريخ الاستلام: 2020/08/10

الملخص: أصبحت الرواية الفلسفية نوعاً جديداً في الكتابة، تجمع بين الفكر النظري الخالص والحبكة الروائية المرتبطة بمواقف شخصية محددة. وفضيلة هذا النوع الجديد من الكتابة تكمن في القدرة على إنزال الفلسفة المجردة ووضعها في سياق وجودي قابل للإدراك. إن الرواية الفلسفية تعمل على مسرحية الفكر من أجل تجسيد المجرد وتعيين المتعالي. ولنا في الأعمال الروائية – الفلسفية للعالم النفسي الأمريكي "يالوم" مثال إيجابي ومثمر في هذا النمط من الكتابة، حيث نشر ثلاثة روايات مخصصة لأهم فلاسفة الغرب: سبينوزا، وشوبنهاور، ونييتشه. وهذا الاختيار يدل على وعي حاد بمدى أهمية هذه الأسماء في إعادة تشكيل إستراتيجية الفكر الغربي ككل. لذا فمشكلة المقالة تتمثل فيما يلي: ما هي النتائج المنتظرة من كتابة الرواية الفلسفية عند يالوم؟ وكيف يتم الربط بين فكر هؤلاء الفلاسفة من أجل تشكيل النظرة الغربية للوجود؟

الكلمات المفتاحية: اليوم رواية الفلسفة، عندما بكى نييتشه، علاج شوبنهاور، مشكلة سبينوزا.

Abstract: Philosophy has become a new type of writing, combining a purely theoretical thinking with a new plot associated with specific personal attitudes. The American philosophical novelist "Yalom" is a positive and fruitful example of this type of writing: he has published three novels devoted to the most important philosophers of the West: Spinoza, Schopenhauer and Nietzsche. This choice demonstrates a keen awareness of the importance of these names in reshaping the strategy of Western thought as a whole. The problematic of the article is thus the following: What are the expected results of the writing of the philosophical novel in "Yalom"? How are these philosophers related to the Western vision of existence?

Keywords: Yalom, the novel of philosophy, when Nietzsche cried, the treatment of Schopenhauer, the problem of Spinoza

^{1*} عنيات عبد الكريم ، محاضر أ ، anayatkrim@live.fr. مخبر البحث المجتمع الجزائري المعاصر.

² قرقي إيمان، طالبة دكتوراه ، imengargui@gmail.com مخبر البحث المجتمع الجزائري المعاصر.

مقدمة:

ما الرواية الفلسفية ؟

ليس من الحكمة التفرقة بين الفلسفة والأدب، فقد ابتدأت الفلسفة شعرا، ونال البعض من الفلاسفة نوبل للأدب، واحترف آخرون كتابة الرواية، وأتقن البعض الآخر نظم القصائد، واتجه الأغلبية لكتابة سيرتهم الذاتية والفلسفية... الخ. ليست الفلسفة إلا رواية العقل، وليست الرواية إلا حكاية الفلسفة العفوية الوجودية. لذا فإن فلسفة الرواية ورواية الفلسفة وجهان لطريقة فريدة في التفكير والكلام والتصرف. هذا ما يجعل مبحث الفلسفة والأدب عموما، والفلسفة والرواية خصوصا من المباحث التي أخذت نصيبا متزايدا من الاهتمام الفكري، سواء من طرف الفلاسفة النقاد أو من طرف النقاد الأدباء. وحتى في تراثنا الفكري الإسلامي، نجد من جمع بكفاءة فريدة بين الفلسفة والأدب، ولذلك سمي بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ونقصد طبعا التوحيدي الذي ضمت "مقابساته" و"مؤنساته" ذخائر فلسفية وأدبية رفيعة.

سنخصص هذه المحاولة لدراسة خصائص الرواية الفلسفية عند البروفيسور "إرفين د يالوم" Irvin D Yalom (1931 / ؟) الذي ارتحل من الطب النفسي، وهو الأستاذ الفخري في الطب النفسي بجامعة ستانفورد، إلى الرواية الفلسفية عندما اختار شخصيات فلسفية ثقيلة في ميزان تاريخ الفلسفة، لكي يحكي لنا فلسفة ويفلسف الحكاية. وما تمتاز به الكتابة عند "يالوم" أنها تمزج بإتقان منقطع النظير بين المعارف الفلسفية الخالصة، مما يدل على اطلاعه الواعي والعميق على المذاهب الفلسفية للفلاسفة الذين كتب عنهم، وبين أساليب الكتابة الروائية التي تخلق شخصيات وتشكل مواقف جزئية حسية من أجل تمرير الأفكار الفلسفية الكلية المجردة.

لغاية اليوم، تم نقل ثلاثة روايات فلسفية كتبها "يالوم" إلى اللغة العربية، وهي على التوالي: عندما بكى نيتشه 2015، علاج شوبنهاور 2018، مشكلة سبينوزا، 2019. وكما هو ظاهر، فإنه قد تناول شخصيات فلسفية مهمة في تاريخ الفلسفة الغربية، كلٌّ ساهم في عصره، وبخصوصياته المذهبية، في أحداث تغيير مهم في مسار الفكر الغربي.

ستكون غاية هذه الدراسة تقديم محاولة تحليلية في هذه الروايات الفلسفة الثلاث، من أجل الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هو المضمون الفلسفي للروايات الثلاثة ؟ هل يمكن أن نجد إجابة عن سر اختياره لهذه الشخصيات: نيتشه، شوبنهاور، اسبينوزا ؟ ما هي المواقف الفلسفية المخصوصة لـ "يالوم" الأديب والطبيب النفسي ؟ سنعمل في العنصر الرابع على تركيب نظرة شاملة عن نتائج الإسهامات الفلسفية لهؤلاء الفلاسفة الكبار، إذ أنهم أحدثوا أثرا بالغا في الوعي الأوروبي والعالمي على السواء، على أساس أنهم تميزوا بشكوكية حادة، خصوصا في المسألة الدينية. كما أنهم كشفوا عن خبايا النفس الإنسانية، تلك الحفرة العميقة والمظلمة والمتحولة التي يصعب كشف أغوارها.

1- نيتشه وبروير: تبادل الأدوار العلاجية.

ترصد رواية "عندما بكى نيتشه" مرحلة مهمة في حياة الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" (1900/1844)، وهي رحلته العلاجية إلى فيينا سنة 1882، وهي المرحلة التي بدأ ينهار فيها من الناحية العقلية، حيث عاش الاثني عشر سنة المتبقية من حياته في جنون كلي، وأصبح عاجزا وتابعا لرعاية أخته "إيزابيت". وعلى الرغم من أن نيتشه لم يلتق بالدكتور جوزيف بروير إطلاقا، إلا أن "يالوم" قد خلق، بخياله الأدبي، الظروف المنطقية التي تسير فيها أحداث الرواية في تناسق ومعقولية. وبغض النظر عن واقعية الأحداث، فإن أهم مسألة سنكتشفها بعد قراءة هذه الرواية متعلقة بالموقف من العلاقة بين النفسي والفلسفي، ورصد الخلفية الفكرية لنيتشه من خلال تفاصيل عشقية مع الفاتنة سالومي، التي نسجت علاقات علمية وعاطفية متميزة جدا، لأنها لا تهوى إلا الكبار: نيتشه، فرويد، ريلكه... الخ. وفي مصادقتها لهم، ساهمت في انضاج أحاسيسهم وتكوين أفكارهم وتوجيه مواقفهم. كما أن هذه الرواية كانت فرصة لعرض المشكلات النفسية الكبرى والقضايا الفلسفية المهمة في فلسفة نيتشه. لذا حق اعتبارها رواية "نفسية- فلسفية" وهو حال جميع روايات "يالوم" الأخرى.

تبدأ الأحداث باتصال سالومي، وهي صديقة نيتشه حيث تعرفت عليه بواسطة صديقه "بول ري" وتأثرت ببعض أفكاره ونشأت بينهما علاقة عاطفية انتهت بالفشل بسبب رفض سالومي طلب نيتشه للزواج، اتصلت بالطبيب النفسي المشهور في فيينا "جوزيف بروير"، وهو أيضا صديق وأستاذ "سيجموند فرويد". حيث اتصلت به من أجل طلب علاج نيتشه الذي وصل إلى حالة يأس متقدمة، وهو رأي زميلة البروفيسور "أوفير بيك" أيضا، وقد اعتقدت أنه قد يقبل على الانتحار، وهذا خسارة كبرى للفكر الفلسفي، لأن انتحار فيلسوف بهذا الحجم سيحرم الإنسانية من أفكاره العظيمة. لكن لو علم نيتشه بما أقبلت عليه "سالومي"، لرفض العلاج تماما، ثم أنه ليس مثل بقية المرضى، فهو أيضا عالم نفس، حيث يستعمل هذه العبارة في مناسبات عديدة عند حديثه عن منهجه الفلسفي في الدين والأخلاق... الخ.¹ كان نيتشه مؤمن بأنه فنان إزاله الأقنعة عن الناس وعن الأفكار، ولا يكون هذا إلا بالحس النفسي العميق. كان نيتشه مختص في البواطن كما أكدت ذلك "سالومي" في كتابها المخصص لفكره وحياته ورسائله.² لذا نجد من يؤرخ للتحليل النفسي بالطريقة النيتشوية، وسنرى في ثنايا الرواية كيف أن "بروير"، الذي ألهم فرويد، قد استفاد من طريقة نيتشه السيكلوجية. كما استفادت "سالومي" من كل العلماء والفلاسفة والشعراء الكبار الذين رافقتهم فكريا وروحيا، لذا نجدها تقول معترفة للطبيب بروير: "أنا أجد متعة كبيرة عندما أكون في حضرة عقول عظيمة. ربما لأنني بحاجة إلى قدرة كي أطور ذاتي".³ وبالفعل، فقد ألقت كتب

¹Pierre Klossowski : Nietzsche et le cercle Vicieux, édition Mercure de France, 1978, p 329.

²Lou Andreas-Salomé: Friedrich Nietzsche à travers ses œuvres, traduit par Jacques Benoist-méchin, éditions Grasset, Paris, 1992, p 28.

³إرفين. د. يالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، منشورات الجمل، بيروت- بغداد، الطبعة الأولى، 2015، ص 14.

جيدة عن نيتشه وفرويد، وأرخت لمرحلة ثرية في الفكر الألماني. ورفضها الارتباط التقليدي مع مرافقها نابع من كون روحها حرة تأبى الزواج الذي يستعبد ارادة التحليق بعيدا في سماء الفكر والوجود.⁴ لقد أرادت أن تقيم علاقة مع نيتشه، لكنها ليست علاقة زواج مقيد، وقد انتهى نيتشه ذاته إلى ضرورة ذلك. إن الذي يريد أن يخفق بجناحيه لا يمكن أن يتزوج.

إذن، نحن أمام مشهد نسجته "سالومي"، وهذا يعكس الدور الهام لهذه الشابة الروسية في حياة نيتشه ذاتها، فهي التي رتبت موعدا طبيا سريا من أجل استرجاع هذه الجوهرة الفلسفية من ارادة الموت. وهكذا، أقنعت "نيتشه" عن طريق أصدقاءه طبعاً، بضرورة زيارة عيادة الطبيب الأكثر شهرة في فيينا وأوروبا "جوزيف بروير". وقبل أن يلتقي بروير بنيتشه، قدمت سالومي مجموعة من طباع نيتشه الأساسية لكي لا يصطدم معه، منها: أنه لا يخضع للتنويم المغناطيسي بسبب بناهته العليا، عكس بقية المرضى مثل "بيثا باينهم" مريضته المشهورة.⁵ كما أنه يرفض الخضوع لأي سلطة أخرى بسبب اعتقاده بالقوة. وهذا يعود إلى تأثره بالإغريق السابقين على سقراط وبأفكار شوبنهاور.⁶ والحق أن هذه الخصائص مبثوثة في كتب نيتشه ذاته، حيث أنه دائم العودة إلى الإغريق في العصر التراجيدي، وقد ألف كتابه الأول حول "مولد التراجيديا" بسبب تضخم الفكر النظري على حساب حياة القوة. كما أنه خصص دراسة طريفة حول "الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي" فيها قدم تأويلية مخالفة للتيار لهذه المرحلة وربط قوة الإغريق الجسدية والصحية وقدرتهم على انتاج فلسفة غير مألوفة.⁷ أما تأثره بشوبنهاور فهو مؤكد أيضا في كتاب "مولد التراجيديا" حيث يقتبس منه صفحات وصفحات متتالية،⁸ كما أنه عتّون أحد اعتباراته اللاهنية، وللتذكير فإن نيتشه يعتبر نفسه سابقا لراهنه ولن يفهم إلا بعد قرنين أو أكثر بسبب ثقل طروحاته على العقل الإنساني،⁹ قلنا عنوانها بعبارة: "شوبنهاور مربيا" فيها يقول عن معلمه الأول باعتباره طريقا أول: "توجد هناك طرق أخرى للعثور على أنفسنا، والعودة إلى أنفسنا من التيه (...) لكن لا أعرف طريقة أفضل من أن يتذكر المرء مربيه ومهذبيه. ولهذا سأذكر المعلم الوحيد ورجل المهمات الذي يمكنني

⁴ المرجع نفسه، ص 21.

⁵ المرجع نفسه، ص 65 - 66.

⁶ المرجع نفسه، ص 28.

⁷ Friedrich Nietzsche : La philosophie à l'époque tragique des grecs, suivi de Sur l'avenir de nos établissements d'enseignement, traduits par Jean - louis Backes, Michel Haar et Marc B. de Launay, édition Gallimard, Paris, 1975, § 1.

⁸ Friedrich Nietzsche : La naissance de la tragédie, traduit par Geneviève Bianquis, éditions Gallimard, 1986, § 16, p 110.

⁹ إرفين. د. بالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، مرجع سابق، ص 13.

التفاخر به، إنه أرثور شوبنهاور...¹⁰ إن قوة اليونان وإرادة شوبنهاور هي التي شكلت أسس نظرية "إرادة القوة".

حصل اللقاء بين نيتشه و"بروير" في عيادة هذا الأخير، وتبادلا أطراف الحديث، دون أن يعرف نيتشه بأن طبيبه متواطئ مع "لو سالومي". فقد صرح المريض قائلاً بأن شدة مرضه هي التي تقيد آرائه أحياناً، وأنه زار ما يفوق العشرين طبيباً بسبب آلامه وصداعه وبصره وقلقه وتعرقه وتقيئه وغثيان... الخ. لكنه لم يستفيد أي شيء منهم.¹¹ وبعد الفحص السريري تبين تجمع العديد من العلل الجسمية فيه، وأدرك أن شدة واستمرار الألم يؤدي حتماً إلى اليأس والتشاؤم. ولكن نيتشه يفكر في المستقبل من خلال مشاريع أفكار، إذن فمن الحكمة استبعاد النوايا الانتحارية التي تحدثت عنها "لو"، حتى أن كلام نيتشه لا يوحي إطلاقاً بالروح اليائسة المقبلة على إرادة العدم.¹² وفي النهاية، وبعد فحوص كثيرة ومتكررة شخّص "بروير" مرض "نيتشه" في الشقيقة التي هي سبب الصداع وألم العينين والغثيان... الخ.¹³ هذا التشخيص دفع نيتشه ليطرح، على بروير، موقفه، من المرض كعامل على الاستقلال الفكري، مما يتيح الحديث عن فوائد ومحاسن المرض على المفكر، حيث أنه "إستفاد من ضعف بصره، لذلك، بمنأى عن الآخرين، فإنه يفكر بأفكاره الخاصة به. من الناحية الفكرية، يجب أن يعتمد على افكاره. ربما كان ذلك أمراً جيداً. ربما لهذا السبب أصبح فيلسوفاً صادقاً. يقول: إنني أكتب عن تجربتي الخاصة. إنني أكتب بالدم، وأفضل حقيقة هي الحقيقة الدامية (...). لقد حررتني مرضي، فبسببه تعين عليّ أن أستقيل من عملي في بازل (الجامعة). لو بقيت هناك، لانشغلت بالدفاع عن نفسي من زملائي".¹⁴ وانتهى إلى حكمته الشهيرة: "الشيء الذي لا يقتلني يزدني قوة (...). لهذا السبب فإنني أكرر "إن مرضي نعمة".¹⁵ يا له من دفاع مستميت على أكبر الشرور الطبيعية: المرض والألم. هنا فقط ندرك القوة الكبيرة التي يمتلكها هذا الرجل، إنه يمدح المرض الذي لا يقتلنا، كل ألم هو مادة خام لفكر حاد ومجدد وثنوري.

بعد حوارات متعددة بين المريض والطبيب، اقتنع "بروير" بأن "نيتشه" حكيم عظيم، وليس البتة مثل بقية المرضى، إنه ينقض طرقه العلاجية، ولا يقتنع بأي مقارنة من مقارباته، حتى أن مُساعدة "بروير" في العيادة قد لاحظت بصدد نيتشه بأن "بروير" يبذل كل ما بوسعه لمعالجته، لكنه يحاربه في كل ما يقول.¹⁶ نيتشه ليس مريضاً وفقط، بل مريض متفلسف يمكن أن يتحول إلى معالج بدوره. إن ملاحظات نيتشه أمام "بروير" جعلت هذا الأخير يقتنع بأنه قادر، بوصفه مريضاً حكيماً، أن يساعده هو في قلقه من فتور

¹⁰ فريدريك نيتشه: شوبنهاور مريباً، ترجمة قحطان جاسم، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016، فقرة 1، ص

22.

¹¹ إرفين. د. يالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، مرجع سابق، ص 80.

¹² المرجع نفسه، ص 90.

¹³ المرجع نفسه، ص 133.

¹⁴ المرجع نفسه، ص 140-141.

¹⁵ المرجع نفسه، ص 141.

¹⁶ المرجع نفسه، ص 164.

علاقته بزوجته ومن مشكلة مريضته "بيرثا" التي سببت له فضيحة أبت أن تزول. لذا قرر "بروير"، من أجل تقوية علاقته بالمريض "نيتشه" خدمة متبادلة بين الطب والفلسفة. لذا "طلب بروير من نيتشه أن يعالج هو جسمه في مقابل أنه يعالج هو روحه"، فوافق نيتشه (...). أي يقدم له استشارات فلسفية شخصية. (هذا ما ذكره نيتشه في رسالة إلى بيتر غاست)¹⁷. "والحق أن نيتشه في كتاباته الفلسفية، يعتبر أن الفيلسوف طبيب بآتم معنى الكلمة، فهو يتأمل، ويشخص ويقدم العلاج. إنه طبيب الثقافة ومعالج انحطاط الحضارة الغربية بخاصة.¹⁸ لذا يقول "بروير" محددا موقف "نيتشه" العام: "يحب نيتشه اعتبار نفسه طبيا، لا طبيا شخصا بل طبيب لثقافتنا برمتها".¹⁹ لقد كانت استراتيجية "بروير" موجهة لتحقيق غرضين؛ التقرب من نيتشه أكثر ومنحه ثقة اضافية من خلال شعوره بالقدرة على علاج روح طبيبه، والتخلص من أوهامه وقلقه الذي أصبح شبحا يخيم عليه وينقض على راحته. وبالفعل، فقد اهتم "نيتشه" بتحليل أحلام "بروير"،²⁰ لاعتقاده أنها ليست فضلات ليلية مثلما اعتقد البعض بل هي تحريف لحقيقة ما. وفي مقدور نيتشه، في هذا المستوى، الحديث عن العلاج الفلسفي الذي يستند إلى تأمل الإنسان والكشف عن سريره و "كنس المدخنة أي أن تطلق العنان للنفس حتى تتمكن من تهوية الدماغ وتطهير العقل من جميع الأفكار المزعجة".²¹ وهذه الملاحظة الأخيرة تؤدي بنا إلى التقارب الكبير بين أفكار نيتشه وطريقة فرويد، وعلى الرغم من أن "فرويد" لا يكتب كثيرا عن نيتشه، إلا أن هناك من يتحدث عن انتقال الأفكار النيتشوية إلى "فرويد"، إما عن طريق قراءته لكتب نيتشه التي انتشرت من بعد وفاته سنة 1900، أو عن طريق محادثاته مع "سالومي" التي كانت متأثرة بطريقة ولغة نيتشه. وهذا ما يقوله بروير، الذي يمثل الوسط بين فرويد ونيتشه، حيث كان يستمع إلى كيلاهما، عندما يحدث التقارب بين صديقه ومريضه: "إنه (نيتشه) مثل سيغ (أي فرويد) لديه عينا صقر ويرى المشاعر الخفية".²² ومن الناحية التاريخية، كان الأجدر أن يقول بأن فرويد مثل نيتشه وليس العكس. ويذكر "بالوم" على لسان "بروير" بأن "نيتشه قد وصف فرويد بالعبقري عندما أخبره "بروير" بتأويله لحلم".²³ وفي النهاية يتعرف بروير، بعد أن قضى حصص عديدة مع نيتشه، معالجا وطبيا، بأن حديثه مع هذا الطبيب المريض

¹⁷ المرجع نفسه، ص 207-208.

¹⁸ Friedrich Nietzsche : Aurore – pensées sur les préjugés moraux – fragments posthumes début 1880– printemps 1881, traduit par Julien Hervier, Œuvres philosophiques complètes, tome IV, éditions Gallimard, Paris, 1980, avant-propos, para 5, p 17.

¹⁹ إرفين. د. بالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، مرجع سابق، ص 217.

²⁰ المرجع نفسه، ص 249.

²¹ المرجع نفسه، ص 269-270. أيضا: بيير هادو: الفلسفة طريقة حياة – التدريبات الروحية من سقراط إلى فوكو، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019، ص 98.

²² إرفين. د. بالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، مرجع سابق، ص 272.

²³ المرجع نفسه، ص 345.

والفيلسوف القاسي، قد جعله يرتاح لتحليله وتشريحه، لقد وقع في غواية نيتشه. بل أنه بحاجة الى مساعدة نيتشه، بعدما كان لا يهتم بكلماته.²⁴

بعد أن استمع "نيتشه" لانشغالات وانهمامات وتوهمات "بروير" الطبيب، بخاصة قوة حضور صورة مريضته "بيرثا"، توصل إلى أن حبه لبيثا ليس إلا امتداد لحب أمه التي فقدتها وهو صغير، ولم يكن اسم إمه إلا "بيرثا". أي الرابط بين حبه لأمه وحبه لمرضته هو الاسم.²⁵ وقد اعترف نيتشه بدوره، بعد العديد من الجلسات والزهات في المشفى، أنه قد وقع في حب امرأة، لكن من هي، إنها "سالومي" التي صب جام غضبه عليها وعلى المرأة بالعموم.²⁶ لقد صعد حب "سالومي" إلى السطح، بعدما كان يشتغل في أعماقه دون أن يتحكم فيه. وأخيرا يعترف نيتشه في درجة ثانية قائلا: "ربما بذرت سالومي قبل تسعة أشهر بذرة زرادشت في شقوق دماغي (...). ربما كان قدر "سالومي" تلقيح عقول خصبة بكتب عظيمة".²⁷ وقبل ذلك كان "بروير" قد اعترف بأن سالومي هي من توسطت له بالعلاج، وبأنه اطلع على خلفية شخصيته، وقرأ بعض كتبه... الخ. وعندما تأكد بأن مهمة "سالومي" هي شفاءه من أجل مواصلة تفكيره وفلسفته، وعندما تأكد بأنها لا يمكن أن تكون له؛ "نزع نظارته، ودفن وجهه في منديله، وأجهش بالبكاء".²⁸ وبهذا البكاء يتضح مدلول عنوان الرواية: "عندما بكى نيتشه". لقد بكى على حبه الذي لا يمكن أن يتحقق، إذ أنها لا تفكر فيه كحبيب، بقدر ما تفكر فيه كفيلسوف ستستفيد منه الإنسانية. اكتشف نيتشه بأنه لا يمثل إلا فلسفة مجردة، وبأن "سالومي" لا تعبره إنسانا يمكن أن تحبه وتعاشره. لذا ليس هناك أمام هذه الحقيقة المرة إلا البكاء على كونه فكرة وليس شخصا، وهو الذي حارب طوال حياته الفكرية الأفكار. إن بكاء نيتشه دالة على فشل فكره الذي عجز عن الحياة بلا أفكار.

2- شوبنهاور وعلاجات الفلسفة أو "الفيلسوف السريري".

تمثل هذه الرواية سيرة طبيب نفسي بعد أن اكتشف اصابته بمرض سرطان الجلد، وهو الاكتشاف الذي سيضع كل قناعاته ومعتقداته على المحك. لقد "هيمن جوليوس هيرزفيلد، ذي الـ 65 عاما، على أوساط الطب النفسي طول 30 سنة، ولكونه استاذاً في طب الأمراض النفسية في جامعة كاليفورنيا، فقد درّب وخرّج أعداد كبيرة من الطلاب، فضلا عن أنه كان رئيس الجمعية النفسية الأمريكية قبل 5 سنوات".²⁹ وعلى الرغم من أن "جوليوس" كان يقدم لمرضاه دروس في تقبل الموت على الطريقة الرواقية والأبيقورية، إلا أنه عندما علم من طبيبه بأن لا يمكن أن يعيش أكثر من عام في صحة جيدة، بدأ هو

²⁴ المرجع نفسه، ص 330.

²⁵ المرجع نفسه، ص 343.

²⁶ المرجع نفسه، ص 411.

²⁷ المرجع نفسه، ص 426.

²⁸ المرجع نفسه، ص 429.

²⁹ إرفين. د. يالوم: علاج شوبنهاور (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، منشورات الجمل، بغداد- بيروت، الطبعة الأولى، 2018، ص

نفسه يفكر في الموت على أنه مسألته الشخصية وليست موضوعاً مجرداً في كلمات وتصورات. و"عندما فهم جوليوس حقيقة طبيعة مرضه الفظيعة، بدأ يعتبر سرطان الجلد مخلوقاً مفترساً نهماً يغرس في أعماق لحمه أعشاباً لولبية سوداء. كم كان من المروع أنه أدرك فجأة أنه لم يعد شكلاً من أشكال الحياة الأسعى، وإنما أصبح مضيفاً، طعاماً، غذاءً، لكائن حي أقوى يقسم خلاياه ويلتهمها بسرعة مدهشة".³⁰ تغدو الحياة من منظور المرض مجرد مادة لاستمرار الموت، ومن كان يعتقد بأن الحياة أقوى من الموت، يجب أن يتأكد بأن الكلمة الأخيرة تكون للموت، شئنا أم أبينا، لأنه هو الأصل، فالعدم، هو ما يكون قبل الحياة وبعدها، العدم أكثر انتشاراً من الحياة. في البداية عدم وفي النهاية عدم آخر.

عندما يكون الموت وافقاً أمام الإنسان، سيغير من طريقة تفكيره، ويعدل سلوكياته، ويقتنع بأن لا معنى لما يحدث. بل أنه يصبح أكثر تسامحاً وأقل تشبثاً بالمواقف والقناعات. هنا تذكر "جوليوس" موقفه الإزدراخي من الطقوس البوذية في العبادة، وتراجع عن ذلك، تاركاً هامشاً من التسامح بلا حدود. الموت هو الذي يقرب بين البشر ويجعلهم يشعرون بالمساواة التامة بعيداً عن أي حسابات أخرى. نحن إخوة في الموت. بل أن الملحد قد يتسامح مع الطقوس التعبدية التي كان يعتبرها عبثاً؛ "بعدها رأى جوليوس اسمه على قائمة الموت، قال لنفسه إن ممارسة قليل من الطقوس والشعائر ليست بالأمر السيئ".³¹ وهنا نلاحظ جيداً أن الكلمة الأخيرة للإنسان، لا تتشكل إلا عند اقتراب الموت منه، إن الموت كفيل بإنضاج المواقف وتوضيح التفاصيل.

أصبح "جوليوس" حلبة لصراع أبدي، هو صراع الحياة والموت. هل بمجرد إصابته بمرض قاتل يجعله ينسحب بكل سلبية نحو النهاية والسكون والبرد؟ لقد كان "جوليوس" مهتماً بنيتشه، وقد قرأ له وكتب عنه، بخاصة علاقته بفرويد، وهي المسألة التي أشرنا إليها أعلاه في العنصر الأول. فقد كان مقتنعاً بأن هناك شيء ما، وإن كان مضموراً قد انتقل من نيتشه إلى شوبنهاور. ثم أن كل من قرأ "زرادشت نيتشه" لا يمكن أن يستسلم للموت. "قال "جوليوس" لنفسه، وهو يعلم أكثر من أي شيء آخر، كيف يمكن احترام الحياة والاحتفال بها (...)" "أن تحول كل ما كان إلى ما أردت. ذلك فقط ما أدعوه خلاصاً للبشرية". فهم "جوليوس" بأن كلمات "نيتشه" تعني أن عليه أن يختار حياته- عليه أن يعيشها لا أن تجعله يعيشها. بمعنى آخر ينبغي عليه أن يحب قدره".³² ونحن نقرأ كتاب "علاج شوبنهاور"، نكتشف فجأة "علاج نيتشه"، الذي يقدم لنا فسحة حارة للإقبال على الحياة، فسحة اقتبسها بقوة من الإغريق الذين تتلمذ عليهم، عاش مثلهم، كتب مثلهم، وطلب الموت مثلهم. ألم يقل "زرادشت" بأن "المرضى والمحتضرون هم الذين

³⁰ المرجع نفسه، ص 14.

³¹ المرجع نفسه، ص 16.

³² المرجع نفسه، ص 19.

احتقروا الجسد والأرض وابتكروا الأشياء السماوية وقطرات الدم المخلصة...³³ هنا يقع "جوليوس" في ما قرره "نيتشه"، فقط المريض والمحتضر من يتخلى عن هذه الحياة، حب الحياة من قوة الإنسان ووفرة جسده. يقول "زرادشت": "أكمل حياتك (...). لثمت في الوقت المناسب. هذا هو بيت القصيد. عش حياتك على أكمل وجه، عندها، وعندها فقط مت. لا تترك وراءك أي حياة لم تعيشها".³⁴ هذا القول هو الذي يتيح لنا المشروع في تصنيف فلسفة "نيتشه" إلى فلسفة حياة، بدل الفلسفات التي تهيئ الإنسان للموت على شاكلة الفلسفة الأفلاطونية والبوذية... الخ. وفي هذا السياق بالضبط نجد فلسفة "شوبنهاور" باعتبارها علاجاً من الحياة. فكيف يمكن فك التعارض بين فلسفة الحياة وفلسفة العلاج من الحياة؟ أي أن تطبيق أمراض الحياة التي لا تنتهي هي مهام علاج شوبنهاور في حين أن رسالة نيتشه هي التمسك بالحياة رغم أمراضها وتراجيديتها غير المعقولة.

بعد انسحاب سحابة الصدمة التي تلاقها "جوليوس" من جراء مرضه القاتل الجديد، قرر أن يتصل ببعض مرضاه القدامى، لعله يجد عزاء فيهم. وبالفعل، فقد اتصل بأحد المرضى القدامى الذي التزم ببرنامج علاجي لمدة معتبرة، فوجده يشغل وظيفة لم يسمع بها قط، لقد أصبح "فيليب سلايت" معالجا فلسفيا! فما قصة هذا التحول الجذري من مريض نفسي إلى معالج فلسفي؟ أولا يظهر لنا التقارب الكبير بين بنية رواية "عندما بكى نيتشه" ورواية "علاج شوبنهاور"، حيث تم الربط بين العلاج النفسي والعلاج الفلسفي، وسنرى بعد حين تحول الدكتور "جوليوس" إلى مريض لمرضه بعدما كان طبيبا له. مثلما تحول "بروير" إلى مريض لمرضه.

قبل تاريخ مرض جوليوس بأكثر من 25 سنة، كان يعالج مريض يسمى "فيليب سلايت"، الذي كان يشغل وظيفة كيميائي في أحد شركات الأدوية الفلاحية. والمشكل الذي كان يعانيه "سلايت" هو التالي: قيادة الدوافع الجنسية له رغما عنه (...). دافع جنسي قوي يوجهه منذ كان في الـ 13 من عمره، استمناة قهري طوال فترة المراهقة حتى الآن، أحيانا أربع أو خمس مرات في اليوم، مهوس بالجنس باستمرار، يستمني حتى يشعر بالسكينة (...). يرغب في المطارة الجنسية لكنه لا يشبع أبدا (...). حتى الشهور الـ 12 الماضية مارس الجنس مع 90 امرأة مختلفة.³⁵ وكان سؤاله الأساسي، الذي هو في ذاته شكوى كما يلي: لماذا لا أستطيع أن أفعل ما أريد أن أفعله فعلا؟³⁶ هي شكوى لأنها تشل الإرادة تماما، لم يعد يتحكم في دافعه الجنسي. لم يعد "سلايت" يطبق حياة جنسية مفرطة لا تنتهي، إن مشكلة حياته الجنسية أنها لا تشبع، وبمجرد ما يحقق إشباعا وراحة يشعر من جديد بجوع المطاردة وجوع الشهوة اللعين. وقد

³³ Friedrich Nietzsche : Ainsi parlait Zarathoustra – un livre pour tous et pour personne, traduit par Henri Albert, Presses de la renaissance, Paris, 1958, livre 1, des hallucinées de l'arrière-Monde, p 29.

³⁴ إرفين. د. يالوم: علاج شوبنهاور، مرجع سابق، ص 19.

³⁵ المرجع نفسه، ص 28.

³⁶ المرجع نفسه، ص 33.

استعمل "سلايت"، على سبيل مداعبة طبيبه، المثال الهيراقليطي القديم للدلالة على السيلان الوجودي القائل "لا يمكن النزول إلى نفس النهر مرتين"، في سياق مشكلته الجنسية قائلاً: "لا يمكنك أن تمارس الجنس مع نفس الفتاة مرتين".³⁷ لذا قرر أن يواظب على الحصوص العلاجية عند أشهر طبيب وهو "جوليوس".

بعد اتصال "جوليوس" بمريضه القديم وحصوله على عنوانه، توجه إلى المكان ليجد كتابة على لوحة الدليل بما يلي: "فيليب سلايت: دكتوراه استشارات فلسفية". فاندش جوليوس قائلاً: استشارات فلسفية؟ ما هذا بحث الجحيم؟³⁸ لم يحدث أن كانت الفلسفة علاجية بهذا المعنى. هذا، ويمكن أن نجد رواية "نيتشه" الأولى تتحدث عن التطبيب الفلسفي، حيث اعتبر نيتشه نفسه طبيباً للثقافة المريضة.³⁹ لكن تطبيب الثقافة ككل شيء، وتطبيب الأشخاص بالفلسفة شيء مخالف إلى حد كبير. وبعد استقباله في عيادته الفلسفية، اقترح "سلايت" أن يتبادلاً الأدوار؛ أن يقدم لطيبه القديم استشارات فلسفية تساعد على تجاوز قلق المرض بالسرطان،⁴⁰ أو قل قلق قرب الموت. وفي أحد اللقاءات بين الطبيب النفسي والطبيب الفلسفي قال "جوليوس" لـ "فيليب سلايت": "أنا أشرف عليك نفسياً وأنت تعلمني شوبنهاور".⁴¹ مما يعني أن الطب الفلسفي أصبح في منزلة الطب النفسي. وبعد أن سأل الطبيب النفسي مريضه القديم عن تفاصيل هذا التحول الغريب، بدأ يذكر له كيفية الانتقال من مهنته الكيميائية المملة إلى دراسة الفلسفة الدينية، بخاصة الفلسفة الشرقية الروحية العملية، وعلى الرغم من طابعها الديني، فهي ليست كبقية الأديان، على اعتبار أن كل الأديان الأخرى تنهي التفكير بفرضية الإله، في حين أن الفلسفة الشرقية تجعلك تفكر فلسفياً وتحلل دون توقف خبايا النفس البشرية. ومن هذا المسلك بالذات، طرق "شوبنهاور" مدخل الفلسفة الذي أدى به إلى نظريته حول الإرادة والحياة. إن دراسة الفلسفة الشرقية، هو الطريق المؤدي إلى الفلسفة التطبيقية أو فلسفة العمل، بدل الفلسفة النظرية التي ابتدعها الاغريق، والتي ضخمت النظر على حساب الحياة والانسان كفرد يشعر ويعاني. ويواصل "فيليب سلايت" سرد تفاصيل سيره نحو شوبنهاور: "عندما كنت أكتب الدكتوراه [حول موضوع تأثير شوبنهاور على نيتشه] في جامعة كولومبيا أقمت علاقة مع معالج نفسي، كان المعالج المثالي: أرثر شوبنهاور (...). كان المعالج الملائم لي".⁴² طبعاً، فعندما يقر بفشل كل المعالجات النفسانيين، فإن "سلايت" يقصد طبيبه النفسي القديم "جوليوس"، الذي لم يجد أي علاج من حصصه الكثيرة، في حين أن قراءة شوبنهاور قد عالجت نهائياً من مشكلته الأساسية المتعلقة بالإفراط الجنسي. إن قراءة "شوبنهاور" جعلت من

³⁷ المرجع نفسه، ص 39.

³⁸ المرجع نفسه، ص 33.

³⁹ إرفين. د. بالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، مرجع سابق، ص 269.

⁴⁰ إرفين. د. بالوم: علاج شوبنهاور، مرجع سابق، ص 34.

⁴¹ المرجع نفسه، ص ص 67-76.

⁴² المرجع نفسه، ص 41. ص 357.

"سلايت" فيلسوفا سريريا،⁴³ بدل الصورة النمطية للفيلسوف باعتباره باحثا عن الحقيقة المطلقة بعيدا عن الجزئيات الفردية. وفي النهاية يقتنع "سلايت" بإمكانية تطعيم النفسي بالفلسفي، وهذا في الحقيقة ما أنجزه العديد من الفلاسفة بمن فهم "نيتشه" الذي تحدثنا عنه أعلاه. وأقر بأنه "لا يمانع من مزاجية حكمة الفلسفة بعلاج التحليل النفسي"،⁴⁴ والحق أن هناك أصول فلسفية لكل علم نفس.

في ثنايا الرواية عمد "يالوم" إلى سرد فترات حياة "شوبنهاور" من أجل الربط بين تربيته وفلسفته، بين الفنية والأخرى يواصل سرد العلاج الجماعي بين "جوليوس" و"سلايت" وكل المجموعة التي شكلت المادة الفنية والنفسية لكل الرواية. بالنسبة لحياة "شوبنهاور"، فمن الظاهر أن تنشئته في جو محروم من حب الأم، قد أدى به مستقبلا إلى كره الإنسان بما فيه المرأة بالذات، كما أن النجاح الروائي لأمه، جعله يشعر بالإخفاق العلمي في وظيفته. ومن المفيد أن نعلم بأن أحد أعضاء التداوي الجماعي قد زارت الهند وتعلمت عند "غوينكا" الذي كان معالجا روحيا لقلق الحضارة البشرية. استئصال القلق الناتج عن الرغبة، تلك الرغبة التي قهرت "سلايت" لدرجة أنه التقى في فريق التداوي الجماعي التي يديرها "جوليوس" امرأة كان قد مارس معها الجنس عندما كان أستاذا في جامعة كولمبيا وهي طالبة عنده،⁴⁵ إفراطه الجنسي جعله يوظف سلطته الأستاذية لتحقيق مآربه الحيوانية التي لا تشبع بالمرءة.

ما هي الحالة البشرية السائدة والدائمة ؟ بالنسبة لشوبنهاور فإن البشرية قد دارت دائما في حلقة من الرغبات التي لا تنتهي، ما الحياة إلى حزمة من الرغبات: الرغبة، ثم الإشباع المؤقت، ثم الملل، ثم رغبة أخرى، وهكذا دواليك دون نهاية.⁴⁶ ما الوجود إلا صيرورة رغبات دون هدى، عماء الرغبة في صيرورتها هي حقيقة الوجود. الصيرورة الأبدية للإرادة والرغبات هي ما يمكن أن يختصر جوهر الوجود الكلي. وعندما يدخل عامل النسيان، يصبح إعادة اشباع الرغبة أمرا ضروريا: الإبقاء على لعبة الانتقال المستمر من الرغبة إلى الإشباع، ومن الإشباع إلى رغبة جديدة، وهو الانتقال الذي إذا ما سار بسرعة سميناه سعادة، وإذا ما سار ببطء سميناه حزنا.⁴⁷ ما المعاناة البشرية إلا انعكاسا لاقتصاد الرغبة، تلك الرغبة التي تنتهي بموت الفرد وميلاد آخر، خلود النوع من خلال فناء الأفراد ناتج عن الرغبة ذاتها، نحن أبناء الرغبة والإيروس. وقد لاحظ "بوذا" أهوال الرغبة البشرية التي تكمن وراء المرض والجوع والموت والهرم... الخ. بل أن "شوبنهاور" قد عبّر عن تشابه تجربته مع تجربة بوذا.⁴⁸ الذي أدرك بأن سبب المعاناة هو الإرادة، وهذا ما يظهر في مبادئه الأربعة القائلة بأن: الوجود معاناة L'existence est souffrance. والرغبة هي السبب في

⁴³ المرجع نفسه، ص 67.

⁴⁴ المرجع نفسه، ص 87.

⁴⁵ المرجع نفسه، ص 222.

⁴⁶ المرجع نفسه، ص 87.

⁴⁷ آرثور شوبنهاور: العالم إرادة وتثلا، المجلد الأول، الجزء الأول، ترجمة سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، فقرة 29، ص 286.

⁴⁸ إرفين. د. يالوم: علاج شوبنهاور، مرجع سابق، ص 112.

المعاناة la souffrance est reconnue comme une conséquence nécessaire de certaines causes. وأن نهاية المعاناة مرهون بطمس الرغبة واطفاء الشهوة il faut mettre terme à la souffrance. وأخيراً فإن سبيل اطفاء الرغبة هو الطرق الثمانية عن الاستقامة (التي رسمها بوذا في تعاليمه): il y a une voie: ⁴⁹ "pour y arriver, et c'est cette voie que Bouddha a enseignée. تكمن في ذلك تماماً، يقول شوبنهاور: جميعنا إخوة في المعاناة، ونحتاج إلى التسامح والحب من جيراننا في الحياة". ⁵⁰

ما يمكن أن نتعلمه من "شوبنهاور" أكثر بكثير مما نعتقد، فهو لم يكتف بتأكيد مركزية الرغبة ومأساويتها، بل أنه سبق "فرويد" بأكثر من قرن في الحديث عن انفعال وعي الإنسان. فـ "مشارك فرويد الثوري غير المعترف به هو آرثر شوبنهاور الذي قال قبل أن يولد فرويد بفترة طويلة بأننا محكومون بقوى بيولوجية عميقة، ثم نضل أنفسنا بالتفكير في أننا نختار نشاطاتنا بوعي منا". ⁵¹ فحرية الإنسان تماثل وهم الإنسان، الحرية وهم والوهم حرية.

على أي وجه تعلم "سلايت" من "شوبنهاور"؟ كيف يمكن أن تكون فلسفته تريقاً لقلق واضطراب رجل عانى من فرط الرغبة الجنسية؟ يمكن أن نكتشف ذلك من خلال الإقرار الأول لفيلسوف الإرادة والتمثل، فلئن كان يقر "بسلطة الجنس العليا والشاملة"، ⁵² فإن هذا كفيلاً بتطبيع ما كان يعانيه "سلايت". لأن الشعور بالذنب يأتي من اعتقادنا بأننا غير طبيعيين، وأين هو الحيوان الذي يعتبر جنسانيته انحراف أو مرض أو افراط، إنه بلا وعي، وبالتالي بلا وعي شقي. والمسألة التالية التي تحرر الإنسان هو اقتناعه بعدم حرّيته، يقول "سلايت" متحدثاً عن أثر "شوبنهاور" عليه: "إننا مساكين نحن البشر، نحن الذين نعاني، ضحايا البيولوجيا الذين نملاً حياتنا بالشعور بالذنب من تصرفات طبيعية (...) يتمثل هدفنا جميعاً في أن نتخلص من عبودية الجنس". ⁵³ لكن هل يمكن فعلاً تهذيب الطبيعة البشرية، هل يمكن التحكم في الجنس والعدوانية والأنانية؟ الحقيقة أن كل الأديان الكبرى قد عولت على ذلك، إذ أن كل تعاليمها وُجّهت في هذا السياق، سياق التحكم قدر الإمكان في الطبائع التي تعتبرها غير ملائمة للتجمع البشري. وكل التشريعات التي تم نقلها إليها تصب في هذا الهدف الكبير والمستحيل في نفس الوقت. هل فعلاً يمكن التحكم في الطبيعة المتأصلة في البشر؟ نحن نعتقد أن وضع الإنسانية الحالية، هو وضع من يلتف حول عقوبات فرضت من المجتمع السلطوي. نعم نحن نعيش تحت أوامر أخلاقية تحد قدر الإمكان من الطبيعة البشرية، لكننا في نفس السياق، نلتف عن الأوامر الحتمية من خلال إيجاد

⁴⁹ C.C.J. DE Bunsen: Dieu dans l'histoire, traduit A. Dietz, édition Librairie Académique, Paris, 1868, p 167.

⁵⁰ إرفين. د. بالوم: علاج شوبنهاور، مرجع سابق، ص 210.

⁵¹ المرجع نفسه، ص 238.

⁵² المرجع نفسه، ص 254.

⁵³ المرجع نفسه، ص 254 - 255.

مخارج معينة لتسيير هذه الطبيعة المتوحشة فينا. لذا فإن "التهذيب بالنسبة للطبيعة البشرية مثل الدف بالنسبة للشمع"،⁵⁴ فبمجرد ما يبرد الجو نوعاً ما، حتى تتصلب هذه الطبيعة وتعود إلى شكلها الأصلي. يقول "سلايت" محدداً وجه الإفادة العلاجية من فلسفة "شوبنهاور": "تركزت مهنتي كخبير كيميائي، وكرست نفسي لقراءة كل كتب الفلسفة الغربية (...) لأنني كنت أعتقد بأنني في مكان ما في خضم الحكمة الجماعية لعظماء مفكري العالم سأجد علاجاً لحالي (...) ركزت انتباهي على ثلاث عظماء الفلاسفة الحقيقيين: "أفلاطون" و"كانط" و"شوبنهاور". لكن في نهاية المطاف كان "شوبنهاور" الوحيد الذي قدم لي المساعدة (...) بعد قراءتي لأعماله وإعادة قراءتها لسنوات عدة، وجدت أنني تغلبت على مشاكلي الجنسية (الإدمان الجنسي)."⁵⁵ وكما أظهرنا في الفقرة السابقة، فإن وعي الطابع القوي للجنسانية في الوجود، والتخلي عن وهم الحرية، يساعد على انتزاع عقدة الإفراط والغلو. وبما أن فلسفة "شوبنهاور" قد ساعدت "سلايت" على علاجه الذاتي، فلما لا يستفيد أكبر عدد من الناس من ذلك. بهذا المنطق قرر "سلايت" نقل الفلسفة من النظر إلى العلاج، ومن التأمل إلى السرير: "بما أن الفلسفة هي التي أشفيتني، فمن الممكن أن نستخدم الفلسفة لشفاء الآخرين. فسجلت في منهاج للعلاج النفسي، ثم فتحت عيادة سريرية صغيرة".⁵⁶ بهذا الشكل، يبدو اندهاش "جوليوس" بوجود "عيادة للاستشارة الفلسفية" غير مبرر إطلاقاً.

يواصل "سلايت" في ذكر وصفة شوبنهاور الذي أخذ الشفاء منه كفيلسوف أكثر مما استفاد من علماء النفس، بحيث أن معاناة الإنسان بعمامة تعود إلى ارتباطه المفرط بالأشياء والأشخاص. والحق أن هذا التشخيص قال به "بوذا" في تنويراته، كما قال به "أبيقور" وتلاميذه الرومان بخاصة "لوكرتيوس"،⁵⁷ وبعض الرواقيين مثل "إبيكتيتوس" أيضاً.⁵⁸ فالارتباط الثلاثي بـ "الأنا" وبـ "الآخرين" وبـ "الأشياء المادية" هو الطريق الحتمي إلى القلق والتشاؤم وطلب الموت... الخ، وبالفعل، فقد اكتشفت أحد أعضاء فرقة العلاج الجماعية التي يديرها "جوليوس"، وهي "ريبیکا"، بعد أن سمعت هذا التفسير، بأن سبب معاناتها هو ارتباطها المفرط بمظهرها الخارجي.⁵⁹ لذا فإن وصفة "شوبنهاور" لم تُفد فقط "سلايت"، بل هي وصفة عامة للإنسان، هذا ما يجعل منه طبيباً. لأن كتب نيتشه كتاب "شوبنهاور مُربياً"، فإن ما يمكن أن يكتبه "سلايت" هو كتاب "شوبنهاور مُعالجاً". إن الغبطة والراحة تتأتى من عدم الارتباط وعدم الاهتمام مثلما تفعل آلهة "أبيقور". وأسهب صاحب العيادة الفلسفية في شرح "علاج شوبنهاور" قائلاً: "إحدى أفكار شوبنهاور التي ساعدتني هي الفكرة بأن السعادة النسبية تنبع من ثلاثة مصادر هي: ماهية الشخص، ماذا

⁵⁴ المرجع نفسه، ص 287.

⁵⁵ المرجع نفسه، ص 330.

⁵⁶ المرجع نفسه، ص 331.

⁵⁷ لوكرتيوس: في طبيعة الأشياء، ترجمة علي عبد التواب علي وصلاح رمضان السيد وسيد أحمد صادق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018، فقرة 45-50-55، ص 409-410. فقرة 60، ص 504.

⁵⁸ إبيكتيتوس: المختصر، ترجمة عادل مصطفى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015، فقرة 16، ص 47.

⁵⁹ إرفين. د. يالوم: علاج شوبنهاور، مرجع سابق، ص 336-337.

يملك، وماذا يمثل في نظر الآخرين. ويحثنا على التركيز على الأولى فقط، وألا نعتمد على الثانية والثالثة (أي الامتلاك وسمعتنا) لأننا لا نستطيع التحكم بهذين الشئيين؛ ويمكن أن يُسلبا منا، وهذا سيحدث فعلاً".⁶⁰ وبمجرد أن سمعت "ريكا" هذه الوصفة اكتشفت سبب قلقها وتعاستها، وهو أنها عاشت حياتها من أجل "صورتها في نظر الغير"، وهذا ما جعلها في حالة توتر مستمر لكي تقدم الصورة المثلى لهم. ها قد وجدنا مريضين على الأقل انتفعا من وصفة شوبنهاور؛ "سلايت وريكا".

انبعث قلق "سلايت" من اعتقاده بأن سلوكه الجنسي غير سوي، لأنه يقيس من خلال معيار الآخرين والمجتمع، ولم يعلم إطلاقاً بأن الجنس متجذر في الطبيعة. "إن شوبنهاور جعل شهوتي الجنسية طبيعية. جعلني أرى كيف أن الجنس مطلق الوجود، وأنه في أعماق المستويات، يشكل النقطة المركزية لجميع أنواع السلوك، يتغلغل في كل تصرفات البشر".⁶¹ إن فيلسوفا يؤكد هذا، سيساعد على تجاوز قلق اللا طبيعي والشذوذ الذي يسيطر على الكثير من الناس بسبب قيم المجتمع التي تتنكر لهذه الحقيقة. هذا بالضبط ما عجز كل الأطباء النفسانيين الذين عالج عندهم "سلايت" بمن فيهم "جوليوس". وفي هذا السياق، سألت "ريكا"، العضو في فريق العلاج الجماعي، طالبة التوضيح أكثر: "كيف ساعدك شوبنهاور بالتحديد على الشفاء من دافعك الجنسي القهري؟" دفع هذا السؤال "سلايت" إلى إعادة تأكيد مطلقة الدوافع الجنسية، مما يتعذر معه إسكاتها أو إخمادها بالتبرير المنطقي، ولقد كان فرويد يعتبر "الهو" الذي يمثل الطاقة الجنسية، فوق منطقي أو تحت منطقي أو حتى ما قبل منطقي. وبما أن مسكنات الشهوة غير موجودة ولا يمكن أن توجد، فلماذا السعي إلى ذلك؟ عندما ندرك هذه الحقيقة تصبح حياتنا الجنسية مفهومة وشفافة بصورة تامة. ف"القبول التام بأن الجزء الأعماق في طبيعتنا هو كفاح لا يمكن إرضاءه واشباعه، وأن المعاناة مبرمجة في داخلنا منذ البداية، وبأننا محكومون بطبيعتنا نفسها".⁶² هذا القبول هو بداية الشفاء، بل هو مفتاحه. فالكمل يفكر في الجنس، وجميع الرجال يشاهدون الأفلام الإباحية أو يرغبون في ذلك، فلماذا نقوم بتأثير ما هو طبيعي فينا؟ بهذا المنطق فقط استطاع "سلايت" التحرر من عقدة القهر الجنسي التي سيطرت عليه. إنه في حالة طبيعية ولا مرض في ذلك. المشكلة كلها تكمن في المعايير التي تقيس بها الطبيعية والشذوذية.

بهذه المناقشات في المجموعة العلاجية التي يديرها الطبيب النفسي "جوليوس"، اتضح حقيقة علاج شوبنهاور لمشكلة "سلايت" وحتى "ريكا"، إنه بتطبيع الشهوة الجنسية فقط نتحرر من قلق سيطرتها. وتنتهي الرواية بالموت المفاجئ لجوليوس قبل انتهاء الحصة العلاجية الجماعية.⁶³ فلم يعيش حتى العام

⁶⁰ المرجع نفسه، ص 338. أيضاً: إرفين. د. بالوم: مشكلة سينيوزا (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، بيروت: منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2019، ص 415. يقول سينيوزا: "إذا كان تقديرك لذاتك يستند إلى حب الآخرين، فإنك ستكون في حالة قلق دائم لأن هذا الحب متقلب وغير ثابت".

⁶¹ المرجع نفسه، ص 357.

⁶² المرجع نفسه، ص 360.

⁶³ المرجع نفسه، ص ص 419-428-429.

الذي تحدث عنه طبيبه. ووَرث "جوليوس" عيادته لفليب سلايت، وفتح مجموعة استشارة فلسفية مع أحد أعضاء المجموعة العلاجية وهو "توني". وبهذا تنتهي الرواية موضحة أن المعايير الحضارية هي التي تعتبر سلوكاً ما مريضاً أو طبيعياً، فلماذا لا نثور عليها من أجل الشفاء من أمراض الثقافة. ليس هناك مرض نفسي، هناك مرض نفسي نابع من الحضارة. والشفاء يمكن في الكشف عن الأصول الطبيعية التي أحجبها الثقافة.

3- سبينوزا ومشكلات اللاهوت: التفكير في اضطهاد اليهود ويهود الاضطهاد.

في رواية "مشكلة سبينوزا" يمزج "يالوم"، الواقع بالخيال ليحبك دراما نفسية فلسفية رائعة، وتسير قصة المفكر الهولندي "باروخ سبينوزا" الذي عاش في القرن السابع عشر، والذي أدت فلسفته إلى نبذه وقمعه من الطائفة اليهودية، جنباً إلى جنب مع قصة صعود وسقوط المُنظر النازي، "ألفرد روزنبرغ"⁶⁴ الذي أمر بنهب محتويات مكتبة "سبينوزا" القديمة بهدف التوصل إلى حل "مشكلة سبينوزا"، بين زمنين مختلفين، وشخصيتين متباعدتين في الفكر والتكوين، تتراوح أحداث رواية "مشكلة سبينوزا". التي تدرس كيف أن النازية اضطهدت اليهود، وكيف أن الطائفة اليهودية اضطهدت بدورها كل من يخالفها، حتى ولو كان من أبناء جلدتها.

وهذه التوليفة الغريبة للأحداث والأفكار تجعل القارئ يتساءل: كيف استقام للكاتب أن يجمع داخل رواية واحدة بين شخصين لا قواسم مشتركة بينهما، لا من حيث المكان (هولندا/ألمانيا)، ولا من حيث الزمان (القرن 17/القرن 20)، ولا من ناحية التوجه الفكري (فيلسوف/سياسي أو عسكري)، ولا من حيث الانتماء الإيديولوجي (الأول لم يثبت أن كان له انتماء إيديولوجي معين/الثاني هو أحد دعائم الحزب النازي الألماني). وإلى جانب هذه الحيرة التي يضعها فيها هذا السؤال، تتولد لدينا حيرة أخرى تنتابنا حين نبتغي تصنيف هذه الرواية ومعرفة ما إذا كانت رواية تاريخية، أم سيرة ذاتية، أم أنها شكل جديد تتناغم فيه هذه الأشكال جميعاً؟

الحيرة الأولى فسنعرفها بعد حين، أما الحيرة الثانية نعرفها تلقائياً ما إن ننتهي من قراءة هذا العمل الإبداعي، حيث نجد أنفسنا نميل إلى ترجيح كفة الاحتمال الذي يقضي باشتغال الرواية على الأبعاد الثلاثة: التاريخي والفلسفي والسياسي الذاتي، فهي نص فلسفي نخرج منه بزايا فكرية غير يسيرة، وهي سيرة ذاتية تغوص في أعماق ذاتين تستنطقهما كما لو أن صاحبهما كان حاضراً وعاش الأحداث بتفاصيلها، وهي

64 روزنبرغ (Alfred Rosenberg) وهو مُنظر سياسي، للحزب النازي ولد في 1893 في روسيا وقد تعرف على أدولف هتلر، وقد وضع عدة مصطلحات في الحكومة النازية، وأسس عدة مذاهب أيديولوجية نازية نظرية استمرار البشرية واضطهاد اليهود، وكان من أشد منتقدي معاهدة فرساي والفرن الحديث المنحط، كما عُرف برفضه للمسيحية، وقد لعب دور مهم في إنشاء المسيحية الإنجيلية، عند سقوط ألمانيا النازية تم اعتقاله وحكم عليه بالإعدام، لاثامه بجرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية، وأعدم في يوم 16 أكتوبر 1945.

أيضا نص تاريخي يتأرجح بين فترتين متباعدتين مكانا وزمانا، عبر لعبة من التوازي بين الحقيقتين اتسمت بالدينامية والإتقان.

الشخصية المحورية الأولى، للمفكر والفيلسوف اليهودي "باروخ سبينوزا" الذي عاش في القرن السابع عشر، تُحاكي الرواية تفاصيل حياته بما يشبه السيرة الذاتية، يمزج فيها الكاتب الواقع بالخيال معللا ذلك لنقص المصادر حول الحياة التي عاشها الفيلسوف المنبوذ من قبل الطائفة اليهودية. "سبينوزا" الذي توقع العلمنة، نبذه اليهود واثمّم بالهرطقة إثر قيامه بمحص ما جاء في التوراة من تناقضات ومسلمات، اتهم الحاخامات بتشويهها ووضعها للسيطرة على عقول الناس، فعمد إلى تكذيب مقولة "شعب الله المختار"، ومعاداة رجال الدين الذين اعتبرهم السبب الأكبر لتجميد الدين وتقزيمه وجعله سلعة تتلاعب بها فتواهم وممارستهم التي تثقل كواهل الناس.⁶⁵ والجدير بالذكر أن "سبينوزا" لا يتوجه بنقده نحو الدين بوصفه منزلا أو علاقته بمصدره، وإنما نحو بعض الممارسات التي تدعي أنها دينية، وهي في حقيقتها لا تمت بأي صلة للدين، ولا تخضع لأي تفسير عقلي أو عملي، إذ يقول "لقد دهشت مرارا من رؤية أناس يفتخرون بإيمانهم بالدين المسيحي، أي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والإخلاص لجميع الناس، ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد، ويظهرون أشد أنواع الحقد بحيث يظهر إيمانهم في عدائهم لا في ممارستهم للفضيلة".⁶⁶ يعني أن اللاهوتيين تعاطوا الدين في حدود شعائره فقط أما فعل الممارسة نقيض ذلك. لذا، فإن حملته تأتي بالدرجة الأولى على رجال اللاهوت، الذين يستغلون طابع القداسة للكتب المنزلة متخذين منها نقطة بداية، ومبدأ للدراسة والتفسير، حيث يرى أن الضرر الذي يترتب على نظرة رجال اللاهوت هذه، هو أنهم يستغلون طابع القداسة في عنق حرية الفكر وكنتم أصوات خصومهم، على سيطرة السياسة أيضا. وعلى هذا النحو كان لبحثه اللاهوتي السياسي هدفان: الأول إثبات أن حرية الفكر لا تمثل خطر على الإيمان والثاني أن حرية الفكر لا تمثل خطرا على سلامة الدولة.⁶⁷

مدار حديثنا لم يتعرض بالمناقشة حول فلسفة "سبينوزا" التي لا يتسع المقام لعرضها، وإنما يهمنا كيف عالج "إرفين يالوم" هذه الرواية الفلسفية، حيث قام بتحويل الفلسفة إلى جنس روائي، أفضت إلى إنتاج المعنى وسبك الحقيقة وتوصيف الواقع، حيث أعاد كتابة هذه الفلسفة بصورة غير معهودة، تجعلك تعيش مع الفيلسوف تفاصيل حياته، وتنغمس معه في لجة الأحداث التي رافقت تبلور فلسفته، بلغة سلسة طيبة، بعيدة كل البعد عن الأسلوب الرياضي الذي دبج سبينوزا كتبه. يسرد الكاتب فكر "سبينوزا" ويدقق في تصوراتهِ حول الكتب الدينية ويقف عند تفاصيله، في شكوكه في قدسيتها ونسبته إياها إلى الفعل البشري، ويستعرض جرأته في عرض أفكاره دون خوف أو وجل في فترة صعبة من تاريخ أوروبا، كما يستعرض جرأته في عرض أفكاره الفلسفية، إلا جانب هذا وذلك، يستعرض "يالوم" ما ترتب

65 إرفين.د. يالوم: مشكلة سبينوزا، مرجع سابق، ص 8،9.

66 باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ط)، 1981، ص 101.

67 المرجع نفسه، ص 13.

عن هذه الجراءة، حيث وقع "سبينوزا" ضحية خطة حيكته له من طرف رجال الدين اليهود، مستعملين في ذلك برتغاليين ادعى أحدهما تشككه الديني لكي يستخرج منه كل الهرطقات الممكنة.⁶⁸ وهي الأفكار التي لاقت الاعتراض وغضب رجال الدين آنذاك ومعهم المجتمع بأسره بمن فيهم أصدقائه وأفراد أسرته.⁶⁹ حتى أن أخوه الأصغر قد اشتكى من أثر تفكيره النقدي في الدين على علاقته بخطيبته.

وقد ضمن "يالوم" روايته حكم النبذ والطرده الذي أنزله الحاخامات على سبينوزا، والذي جاء فيه "لقد قررنا إقصاء وطرده ولعن واحتقار المسمى "باروخ سبينوزا" فلتنزل عليه اللعنة في نومه وصحوه، وأثناء دخوله وخروجه، وليحرمه الله من عفوه إلى الأبد، وليصب عليه كامل غضبه ويريه ألوان العذاب المذكورة في الكتاب، وليمحى اسمه من العالم". ولكي يكتمل الحكم، أوردوا العقاب الإلهي بعقاب إنساني مقتضاه: "لا أحد يقدم له المساعدة، ولا أحد يقترب منه بأقل من أربعة أذرع، ولا أحد يقسم معه نفس السقف، ولا أحد يقرأ له كتاباته".⁷⁰ وبقدر ما كان الحكم الذي أنزله الحاخامات على "سبينوزا" قاسيا، بقدر ما كان ابن الرابعة والعشرين بينها صابرا متقبلا برحابة الصدر مصيره. لأنه قرر، كمؤمن صادق، أن يكون صادقا في تفكيره، وأن لا يورث الحقيقة خوفا من المصلحة أو المكانة.

وقد برع "إرفين يالوم" في تصوير تبعات هذا الحكم على "سبينوزا" نفسيا واجتماعيا، حتى لكأن القارئ يقف متأملا في أفكار "سبينوزا" ويرصد أحواله وردود فعله إزاء تقلبات حياته، وما مكن "يالوم" من الغوص في دقائق الأحداث ولطائف المعاني هو ذائقته التخيلية من جهة، وتجربته الطويلة كطبيب نفسي خبر أحوال الناس النفسية وعایش تقلباتهم الداخلية من جهة ثانية، يقول "أردت كتابة رواية تقترب ما أمكن مما قد يكون وقع بالفعل، وقد وضعت تجربتي المهنية كطبيب نفسي في تخيل العالم الداخلي لشخص الرواية، بينتو (أي مبارك) سبينوزا، وألفريد روزنبرغ، كما أسعفتني في النفاذ إلى أرواحهم ومعاينة مكنوناتهم وما انطوت عليه سرائرهم".⁷¹

كما يتناول "يالوم" مؤلفات "سبينوزا" من كتابه "الأخلاق" الذي بجله "غوته" العظيم، ومن محبة غوته لسبينوزا إشتكل مُدرس "روزنبرغ" مسألة كره اليهود ومحبة غوته لسبينوزا. فلا يعقل أن يكون اليهود أدنى الأعراق، وهم الذين استطاعوا الصمود رغم انهيار العديد من الحضارات. مشكلة سبينوزا كيهودي هو أنه كان ضد اليهود من جهة، وكان غير اليهود معجبون به. لا يمكن لروزنبرغ أن يبرر تقديره لغوته وكرره لسبينوزا باعتباره يهوديا. فأهم شيء ميزت فلسفته الأخلاقية هو أنها بنيت على أسس علمية،⁷² فهو يرفض تماما تفرقة الفلاسفة التقليديين بين مجال المعرفة النظرية الخالصة، وهي (الميتافيزيقا) ومجال المعرفة العلمية (الأخلاق)، أي أن تكون نظرنا إلى الطبيعة في مجموعها نظرة علمية لا تمتزج بها

⁶⁸ إرفين. د. يالوم: مشكلة سبينوزا، مرجع سابق، ص 106-107.

69 المرجع نفسه، ص 20.

70 المرجع نفسه، ص 19.

71 المرجع نفسه، ص 7.

72 المرجع نفسه، ص 09.

خرافات، أو تركز على كيانات أسطورية، مما يعني أن العلم والمعرفة يفتحان لنا أبواب الأخلاق، مثلما تمهد الأخلاق طريق للمعرفة.

أهم طابع يطبع الفلسفة الأخلاقية عند "سبينوزا" هو القول بأن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها، وعليه هو ينتقد بشدة "أولئك الذين تصوروا الإنسان على أنه يقف من الطبيعة وكأنه دولة داخل دولة، ويظنون أن له سلطانا مطلقا على أفعاله، وأن شيئا لا يتحكم فيه سوى ذاته"،⁷³ ذلك لأن نقطة البداية الأساسية في فلسفته الأخلاقية هي إدراك الارتباطات بين الطبيعة بوجه عام، فكل إنسان عنده هو جزء صغير من نظام عام في الطبيعة، وهو بذلك نسق من تعقيد داخلي عظيم للغاية، له خاصية مميزة من الوحدة والتوازن، وهو في تفاعل دائم مع غيره من الناس ومع بقية أجزاء الطبيعة، وهذه التفاعلات أو الاحتكاكات المستمرة بين المرء وغيره تميل إلى قلب توازنه في هذا الاتجاه أو ذاك تبعا لطبيعة النسق الذي يجمع نوع محدد من العلاقات التي تربط الإنسان بغيره من أجزاء الطبيعة في لحظة معينة.⁷⁴

يكشف لنا "يالوم" في هذا الصدد أن "سبينوزا" أراد الخروج بالإنسان من الفوضى الفكرية والسلوكية التي يعيش فيها، إذا استطاع التخلي عن الاتجاه الفكري القديم، اتجاه العالم والتأثير فيه، وبهذا كانت فلسفته الأخلاقية بمثابة ثورة على التفكير الأخلاقي القديم، انطلاقا من انقسام الفلسفة إلى بعدين: شمولي وتضميني،⁷⁵ إذ يميل "سبينوزا" إلى الرأي القائل أن الإيمان طريق ضروري لقيادة العامة، ذلك لأن الكتاب المقدس يعتمد في نصوصه على الخيال التصويري، والمجاز، وضرب الأمثلة، ولغته خطابية حماسية، والجمهور لا يستطيع الوصول إلى المبادئ الأخلاقية عن طريق النظر العقلي والتفلسف والبرهان مثلما يفعل الفلاسفة.⁷⁶ لقد عجز اليهود عن فهم الكتاب المقدس، لأنه لا يقرئونه بعقولهم، فلو اعملوا الفهم لاكتشفوا أنه استعاري ظهر في زمان مختلف كلية عن زماننا، مما يعني أننا لا يمكن أن فهم التوراة إلا بالنظر إلى خصوصياتها التاريخية.⁷⁷

ويشير "يالوم" إلى أن "سبينوزا" قد تفتن إلى حقيقة أن كل عصر يطبع ناسه بأخلاق معينة تخالف أخلاق العصور الأخرى، مما يعني أن المجتمع هو بيئة إنسانية خاضع للتطور، وهذا يعني ما يتطور من الأخلاق هو الأخلاق والقضايا والمفاهيم التي ينتجها العصر والبيئة، ولكن ضمن إطار ثابت تمليه الإنسانية وقوانين العالم.⁷⁸

73 Spinoza, Ethies, on introduction, New York, Cambridge, uni pressn, 2006, p 75.

74 باروخ سبينوزا: الأخلاق، ج3، ترجمة: جلال الدين سعيد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1982، ص 128.

75 إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق، القاهرة، دار المعارف، ط 4، 1966، ص 132.

76 باروخ سبينوزا: الأخلاق، مرجع سابق، ص 125.

77 يالوم: مشكلة سبينوزا، مرجع سابق، ص 100.

78 فرانسو مورويار: سبينوزا والسبينوزية، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص 60.

لسنا بصدد الحديث عن فلسفة الأخلاق عند "سبينوزا"، فهذا معروف ولو على وجه الإجمال، لدى كل مهتم بالفلسفة والفكر العام، وكتبه اليوم هي ملك مشاع ومتاح للجميع، وإنما المقصد من عرض التحليل السابق، هو إمعاننا أن "إرفين يالوم" تفكر الرواية حيث مكنت هذه الأخيرة الفلسفة من ذاتها، فكان عمله الروائي يعتمد إقحام المحاججة والجدل، وفي عرض أفكار الفلاسفة بلون روائي تجعل القارئ يذهب بعيدا في تأملاته وخياله، فأثناء تفحصنا لهاته الرواية، وخاصة كيفية عرض "إرفين يالوم" الأفكار الأخلاقية والسياسية لسبينوزا، اكتشفنا مدى تداخل الفلسفي و اللافلسفي بإبداع روائي رائع مما يفتح تفسيرات وتأويلات عديدة.

وما فعله "يالوم" مع سبينوزا البعيد زمنيا، كرره مع "روزنبيرغ" القريب زمنيا، فاستهل عرضه لشريط حياته بتسليط الضوء على الظروف التي حفت به منذ ولادته في مدينة ريفال بإستونيا التابعة آن ذاك للإمبراطورية الروسية، وفقده لأمه عند الولادة، وانخرطه في الدراسة وما نجم عنها من شدة وجذب نتيجة قراءته لأعمال "هوستن ستيوارت شامبرلن"، لا سيما كتابه "تكون القرن 19" الذي تضمن آراء تعجيد العرق الألماني الخالص وترى فيه أنقى وأرقى عرق على الإطلاق، وقد وجدت هذه الآراء صدى في نفسية "روزنبيرغ" الذي سرعان ما تشكل لديه تصور يفضي بأنه الأفضل بين الجميع، وأن الكل يرفضه ويزدرجه على أفضليته هذه، امتزجت هذه الفكرة بمقته الشديد لليهود الذين عدهم سبب الانحطاط الذي اعترى الدولة الألمانية، والجدير بالذكر أن "روزنبيرغ" هو الصديق الحميم لـ"أدولف هتلر" الذي وجد فيه فكره النازي ضالته المنشودة.

أما الخيط الرابط بين الحكايتين (الروائيتين) والذي يسوغ تواجدهما معا داخل رواية واحدة، هو الفيلسوف الألماني العظيم "غوته" (Goethe) الكاتب والشاعر ورجل الدولة، الذي تأثر به "روزنبيرغ" إلى درجة كبيرة، معتبرا إياه أحد أرقى العقول التي أنجها العرق الجرمانى الأصيل، مثلما أظهرنا أعلاه، لكن مكر التاريخ أبى إلا أن يفتتن "غوته" من جهته بـ"سبينوزا"، حيث لم يفتأ يعبر في كتاباته، عن إعجابه الكبير بعبقريّة ألمعية فكر "سبينوزا" التي جسدها في كتبه (علم الأخلاق، رسالة في اللاهوت والسياسة)، الأمر الذي دفع "روزنبيرغ" إلى الوقوع في الحيرة والارتباك، بل والاستغراب الشديد، إذ كيف أمكن لعقل يهودي يتسم بالدونية والانحطاط المتصلين، أن يلفت اهتمام مفكر كغوته، الذي يعد مفخرة ألمانيا ومبعث اعتزازها؟⁷⁹ هذه هي مشكلة سبينوزا التي شع=غلت عقل هذا الطالب الذي سيتحول إلى جندي نازي.

لا بد أن في الأمر التباسا أو سوء فهم، سرعان ما تحول إلى مشكلة في فكر "روزنبورغ" قلبت كيانه، إنها "مشكلة سبينوزا" التي لن يأتي أبدا "لروزنبيرغ" فك تلاسماها حتى بعد أن وضع يده على مكتبة "سبينوزا" من بين ممتلكات اليهود التي تمت مصادراتها داخل الأراضي الهولندية المحتلة، يذهب بنا "يالوم" بعيدا في روايته الفلسفية، ويرى أن "روزنبيرغ" قد أدرك متأخرا أن التفوق ليست مسألة متأصلة في الأعراق، ولا هو متأصل في الطبائع، وإنما هو مسألة جد واجتهاد وفعل وإعمال للعقل، ونقد مستمر للذات، وفحص

79 إرفين. د. يالوم: مشكلة سبينوزا، مرجع سابق، ص 36-64.

متواصل للأمور وتمحيص لجوانبها وابتعاد عن الفكر المتعصب والوثوقية العمياء، وهو فوق هذا وذاك إدراك لأبعاد الأشياء والتنبؤ بمآلاتها، وهذا ما فات على "روزنبرغ" في البداية وأدركه متأخراً.⁸⁰ هذا هو نفسه ما يجب على اليهود تعلمه، بأن الأفضلية ليست مسألة عرقية يمكن توارثها عقائدياً، بل هي فضيلة تتطلب الجهد والعمل المتواصلين.

القراءة الفلسفية لهذه الرواية، توحى بتداخل عميق بين العمل الروائي وبين فعل التفلسف في طريقة عرضه الكاتب للأفكار الأخلاقية والسياسية لسبينوزا، مما يدل على اطلاعه الواعي والدقيق على الكتابات الفلسفية، وبخاصة فلسفة سبينوزا، فعلى الرغم من أنها تمتاز بالطابع العلمي والعقلانية والصارمة والتحكيم المنطقي، إلا أن "يالوم" تمكن من إمعان الفهم فيها، وجعلها متاحة للقارئ العادي، عن طريق عرض الموضوعات والأفكار الفلسفية بطريقة مبدعة أفضت إلى إنتاج المعنى وسبك الحقيقة، ليس هذا فقط، بل أن غرضه الأساسي هو إرواء الظمأ المفاهيمي للقارئ ودفعه بالنتيجة إلى قراءة النصوص الفلسفية ذاتها. وفي بعض الأحيان، الرواية التخيلية وحدها كفيلة بالكشف عن منبت الأفكار الدينية والسياسية. وهذا ما نجح "يالوم" في صنعه لنا.

والملاحظ أن "يالوم" تناول الجدل الفلسفي بقصص غنية بالخيال الخصب، فقد نقل لنا صورة رئيسية عن الحياة الفكرية "لسبينوزا"، وذكرنا بمأساة اليهود إبان الحكم النازي تزكية لأطروحة "الهولوكوست"، وجسد لنا صور التوتر الذي طبع علاقة رجال الدين برجال الفكر عموماً، والأهم من هذا أن "يالوم" لفت انتباهنا لتجلي صراع العقل ضد اللا عقل، صراع بين فكر يشد التحرر ويرفض الفكر الدوغمائي المتسلط أياً كانت أشكاله، واضعاً ثقته في العقل النقدي الذي يفحص الأشياء ويمحصها ويقلبها على مختلف أوجهها، وأنه فكر منفتح ومتعدد الأبعاد، وبين فكر لا يرى من الآراء إلا رأيه ولا يسمع من الأصوات إلا صوته، فكر منغلق على ذاته، إذا ما حاج على السلطة واستشعر على قوته، تحول إلى قنبلة موقوتة حين تنفجر لا تبق ولا تذر.

هذا يقودنا إلى عملية الحكم والتقييم للعمل الروائي من كونه بنية فلسفية، إلى مدى قدرة "يالوم" القيام بدمج السرد الأدبي الذي يتسم بالتدقيق والاستيعاب واستخدامه للصور المجازية والاستعارات الجمالية، وبين موضوعات فلسفية جدلية، ليس هذا فقط كذلك دمج "يالوم" باعتباره طبيباً نفسياً بين المقاربات السيكلوجية، فأصبح النص الروائي سلسلة من العلاقات مع النصوص الأخرى بحيث يندمجان حد التوحد وإخفاء كل جانب من جانب آخر.

وهنا يتراءى لنا أن "يالوم" يمتلك مهارات التفلسف في الرواية، بحيث جعلنا لا نستوعب المشاكل والمواقف القائمة (فلسفية وتاريخية) على الفهم فقط، بل جعلنا نشعر بالمشكلة نفسها ونعيشها، كما أن انفتاح هذه الرواية على هذه التوليفات المتعددة من التأويلات والتفسيرات، وتداخلها مع الفلسفي والنفسي والتاريخي. هو ما يعلى من شأن هذه الرواية ويضمن لها قيمتها كعمل إبداعي يستحق الإشادة

والتنويه، كما أن ازدواجية الحضور الفلسفي والروائي، وجعل الرواية تجربة فلسفية بامتياز، فأهم شيء فعله "يالوم" هو عنايته بالأفكار الفلسفية كعناية الفيلسوف بأفكاره. كنا قد وضعنا عنوانا فرعيا للرواية الثالثة بعبارة "التفكير في اضطهاد اليهود ومهود الاضطهاد". وهذه العبارة تدل على أساس العقل الباطن لدى اليهود. فهم يعتقدون بأنهم مضطهدون سواء من الخارج أو من الداخل. وهذا هو أساس تكتلهم ووحدتهم. وهذا ما لاحظته أحد أتباع سبينوزا بالذات، وهو فرانكو الذي خدعه لكن تاب وأصبح من أتباعه، حيث يقول محدثا معلمه في السر، بعد صدور قانون العزل من كبير الحاخامات: "طالما تعرضنا للاضطهاد، إن لم يكن على أيدي المسيحيين أو المسلمين، فعلي أيدي أحبارنا".⁸¹ وهذا فإن رواية مشكلة سبينوزا، تطرح مسألة اضطهاد اليهود خارجيا مثل العنصرية النازية ممثلة في هتلر وروزنبرغ الذي كان يعتقد بأنه " بالنسبة لألمانيا، فإن المسألة اليهودية لا تحل إلا عندما يغادر آخر يهودي الفضاء الألماني الأكبر. لا أتمنى لهم الأذى، فقط أريد لهم أن يعيشوا في مكان آخر"،⁸² أو داخليا ممثلة في اضطهاد كل يهودي خرج عن الطائفة، وسبينوزا مثال واضح على ذلك.

4- ثلاثة روايات لثلاثة فلسفات: أو التحولات الفلسفية الكبرى.

السؤال الأول الذي يطرحه أي مطلع على روايات "يالوم" الثلاث هو سبب اختياره لهذه الشخصيات الفلسفية بالضبط ؟ هل السبب تاريخي ؟ أي اهتمامه بمرحلة تاريخية ما ؟ الظاهر أن الإجابة تكون بالنفي، على اعتبار أنه تناول ثلاثة قرون مختلفة؛ القرن السابع عشر في حالة سبينوزا، القرن الثامن عشر في حالة شوبنهاور، والقرن التاسع عشر في حالة نيتشه. هل السبب يعود إلى الانتماء الوطني أو المذهبي ؟ نقول ثانية لا، لأن الأول هولندي والآخران ألمان، ثم أن التوجه الفلسفي لهم ليس متناسقا للدرجة التي نعتبرها مراحل متتالية لمسار فكري واحد. وبما أن الحيز لا يسمح لنا بعرض الفروق بين مذاهب هؤلاء الثلاثة، فيكفي أن نقول أن سبينوزا عقلاني على الطريقة الديكارتية، إذ يعتبره البعض من صغار الديكارتيين، وشوبنهاور فيلسوف الإرادة ونيتشه فيلسوف القوة.

لا يكمن الجواب في الشخصيات الثلاثة التي اختارها كموضوع لرواياته، بل نجده في منظور "يالوم" أولا وأخيرا. ولأنه عالم نفس ومحلل مُمارس، فإن أكبر ما يستهويه في الفلاسفة هو المنظور النفسي الذي عالجوا به الأمور. لذا نجده يقول في مقدمة رواية الثالثة: "سبينوزا شأنه شأن نيتشه وشوبنهاور اللذين كتبت عنهما روايتين تستندان إلى حياتهما وفلسفتهما، كتب أشياء كثيرة لها علاقة وثيقة بمجال تخصصي في طب الأمراض النفسية والتحليل النفسي - إذ إن الأفكار الآراء والمشاعر، مثلا، ما هي إلا ثمرة خبرات

⁸¹ المرجع نفسه، ص 436.

⁸² المرجع نفسه، ص 419.

سابقة، وأنه يمكن دراسة العواطف بحيادية..."⁸³ وكما هو ظاهر، فإن محرك الرواية الفلسفية عند يالوم هو المدخل النفسي.

التناول المساق في التحليل السابق للروايات الثلاث "لإرفين يالوم" يكشف عن يقظة معرفية مكينة، لعنايته بأهم الشخصيات الفلسفية في تاريخ الفلسفة الغربية "سبينوزا، شوبنهاور، نيتشه"، التي شكلت أفكارهم معولا للهدم والتفويض والتفكيك، وتحرير الإنسان من المقولات المركزية التي تحكم في الثقافة الغربية انطولوجيا ودينيا، وتخليصه من الإرث الميتولوجي المهيمن، عبر آليات فكرية منهجية، كالتشكيك في المؤسسات الثقافية الغربية، وفضح أوهامها الإيديولوجية وتعرية خطاباتها القمعية المبنية على السلطة والقوة والعنف، فكل من "نيتشه"، و"شوبنهاور"، و"سبينوزا" ساهم بفرداته الفكرية والمنهجية، وشغفه الفلسفي، وخصوصياته المسلكية، في إحداث تغيير في المسار الفكر الغربي وحسبنا أن نشير إلى فلسفة "نيتشه" وأفكاره البالغة التي كانت بمثابة منعطف وجودي "perversion ontologie" للغرب، نتيجة تضحيته بأهم ثابت أنطولوجي أصيل هو الإله، والملاحظ أن بيارق فلسفة ما بعد الحداثة لمعت منذ الفلسفة النازية التي أطلقها الفيلسوف الألماني "نيتشه" باعتباره فيلسوف القوة والسيطرة والغلبة، الذي أحدث انقلابا صادما في المسار الكوني المعرفي، يقاسمه في ذلك كل من "ماركس" (Marx) و"فرويد" (Freud)، ما أسهم في قلب نظام التأويل كليا في الفكر الغربي، فجينيولوجيا نيتشه تكرر قطيعة مع التقاليد الفلسفية برمتها، وتنسف التراث الميتافيزيقي وتدهمه، "ونيتشه بالنسبة لفوكو (Foucault) هو من أنقذ الفكر الغربي من سباته الديني والأنثروبولوجي".⁸⁴ كما أنه انتقد الفلسفة الكلاسيكية وفككها عبر أدوات لغوية وشعرية وسيكولوجية، بقصد زعزعة يقينية تلك الأفكار ولم يهتم بدحضها منطقيا وفلسفيا فقط فهو سخر منها، يقلل من شأن فكرة ببيان إمكانية نقيضها ومعقوليتها، كما يبين جذور الفكرة وأزماتها ومصدرها اللاعقلاني، وهو دوما صاعق صادم، هذه طريقته في تحطيم الأفكار أكسبته سحره الخاص الذي أثر على عدد كبير من مفكري وفلاسفة ما بعد الحداثة. بمن فيهم "يالوم" الذي خصص رواية جيدة لفلسفته وعلاقتها بأصول علم النفس التحليلي. فقد كان لفلسفة "نيتشه" ونظرياته الثورية أهمية كبرى فيما يختص بالأدب وتأسيسه ما بعد الحداثة، فكتابه "مولد التراجيديا" (1872) أحدث هزة عميقة في نمط المفاهيم الفلسفية الأوروبية لاسيما فيما يتعلق بالفن والأدب، وذلك عبر نقده للتراجيديا جامعا بين قضيتين في غاية الأهمية: العمل الفيلولوجي والتأويل الفلسفي. إذ يحدد هذا الكتاب هوية "نيتشه" الفلسفية بوصفه مؤولا وناقدا، منطلقا من الأسس الفنية الممثلة بعشقه الأول "لفاغنز" (Wagner) والأدبية الشعرية بقراءته "لهولدرلين" (Hölderlin) كما احتفى بالفن أساسا لمنطلقات الحياة، كما أن دفاعه ببسالة عن العلاقات الوطيدة بين الأدب والفلسفة، اعتبر هيمنة الفكر على العاطفة أمرا خطيرا، ولهذا نجده في برامجه التشريعي للقيم الجديدة يستخدم نموذجا جماليا لفهم العالم، بما صار

⁸³ المرجع نفسه، ص 7.

⁸⁴ السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1994، ص 75.

يعرف بأنشطة الفكر الفلسفي اليوم بالتأويل الاستيطيقي للعالم.⁸⁵ ومن المفيد أن نؤكد بأن فكر نيتشه بالذات، يقع بين الفلسفة والأدب خصوص الشعر، مما يجعله مُلهما للأدباء كما الفلاسفة على حد سواء. إن كتاب زرادشت منجم استعاري لا يمكن أن ينضب بسهولة. وشاعريته فاضت على النسق المنطقي، وهذا ظاهر في طريقة الكتابة بالذات، أي الكتابة الشذرية التي تقع بين الشعر والنثر.

لقد أمكن للفيلسوف "نيتشه" أن يجمع في شخصيته الفذة وأن يدمج في بوتقة واحدة من خلال أعماله بين ميزات اعتقد لزمن طويل أنها من صميم الكتابة الأدبية ومن صنع الأديب، وكذا بين خصائص رسخت في أذهان أنها حكرا على الفلاسفة ولا مجال للبحث عنها خارج النصوص الفلسفية. فالنص النيتشوي يرجع ببحثه الجينيالوجي إلى ما قبل الفلسفة مدعما الأسطورة تارة ومندد بالعقل في الوقت ذاته، والثناء على الخيال والشعر أيضا، فقد أسكن الفلسفة مسكن الشعر وغادر أساليب الكتابة البرهانية المشبعة بالصورة والتجريد. أي تلك التي كانت تتقنها الفلسفات المثالية، وطور أسلوبا في الكتابة يجمع بين السرد الروائي والغنائي والتحليلي، كما أنه لا يثق في المفاهيم الفلسفية التي تجمد الحياة في قوالها، فقد اعتبر الفن وخاصة الأدب بدلا للحقيقة والمنطق الصارم، وفي هذا الصدد نجد مترجم كتاب "هكذا تكلم زرادشت"، التونسي "علي المصباح"، يُعلق على أسلوب كتابة "نيتشه" واصفا طريقة هذا الفيلسوف "للكلمات أنفاس وشهقات مكتومة و إيماءات خجولة أحيانا متسترة غاية التستر، متمنعة متغنجة، والكاتب المبدع هو ذلك الذي يغازل اللغة ويراودها وبتوسلها حتى تنتهي إلى الانقياد إليه، وفقط عندما ينجح الكاتب في استمالتها، عندها فقط يتحول إلى قناة ووسيط تهال عليه المعاني موكبا مرحا معريدا من الكلمات والصور والاستعارات فيما يشبه حالة من الغيبوبة...".⁸⁶ ينضح النص السالف بمعنى جلي يكشف عن حالة نيتشه في كتاباته الشعرية والنثرية والفلسفية المليئة بهذه الصور التي عرضها لنا المترجم، من هنا يترأى لنا أن حالة نيتشه فعلا حالة إبداعية في ثوب فلسفي تحليلي وانتقادي غير مسبوق. وهو ما نلاحظه في أغلب كتبه، وبخاصة منها « هكذا تكلم زرادشت، العلم المرح، مولد تراجيديا...». فهو لا يثق في المفاهيم الفلسفية التي تجمد الحياة في قوالها، فقد يعتبر الفن وبخاصة الأدب بدلا للحقيقة والمنطق الصارم. أضحى مهتما بالفن والأدب والرواية، وبخاصة أن هذه الأخيرة، اعتبرت أحد المفردات ما بعد الحداثية، مع «دولوز، وديريدا، ولوكاتش»

هكذا إذن، يتم استعادة الفني، وبخاصة الرواية كذائقة فنية واستيطيقية بعد هيمنة العقلاني، و تتحرك في دوائر الفكر الفلسفي مفردات غير معهودة في تاريخ الممارسة الفلسفية كاللهو اللعب والصيرورة والفرح والمأساوي وبراءة الصيرورة، والعالم لا يستوجب أي تفسير سيء لأنه ليسا سوى لعبا جميلا بريئا، وهذا التأويل الإستيطيقي للعالم انعطافة جذرية في تاريخ الممارسة الفكرية⁸⁷، ومهد بدوره إلى انعطافين هما:

85 أويغن فنك، فلسفة نيتشه، ترجمة إلياس بدوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974، ص 15-16.

86 فريدريك نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: علي مصباح، كولونيا، بغداد، (د.ط)، 2008، ص 17.

87 سمير الزغبى: نيتشه - الفن والوهم وإبداع الحياة-، بيروت، دار التنوير، 2009، ص 128.

- انعطاف الجمالي السياسي: ونعثر في هذا الاتجاه على جورج "لوكاش"، و"هايدجر" والعودة إلى الأصول، "والتر بنيامين" والتجربة الجمالية، و"هبررت ماركيز" ونظرية الإيروس والثقافة، و"تيودور أدورنو" في نقد ثقافة العقل القمعية والتعويل على الفن من أجل حماية الحياة.
- الانعطاف الثقافي للجمالية: ونعثر في هذا الاتجاه الجمالية والتواصل عند "يورغن هابرماس"، و"غولدمان" ولغة الفن.⁸⁸

أما شوبنهاور، فهو من أهم الفلاسفة الذين كان الدور الأكبر في تحول الوعي الفلسفي الغربي الحديث، فمعه عرفت العقلانية فهما نوعيا، وتأويلا جديدا ينقض أسس الفكر الفلسفي الحديث، ويؤسس لنمط جديد من العقلانية قوامها اللاعقلانية فالعقلانية بين العقل والإرادة كانت قد احتلت في مؤلفه الشهير: "العالم كإرادة وتمثل" (Le monde comme volonté et représentation)، الذي نشره سنة 1818، حيزا مركزيا، فإذا كان الفكر الفلسفي قد دأب على ترسيخ التراتب بين العقل والإرادة، الذي تكون فيه المعرفة مفتاح الإرادة نحو الحرية والفضيلة، لأن المعرفة هي التي تحقق من حيث الأولوية الوعي بال رغبات، والمشاعر وتميز حقيقتها من زائفها، لتأتي الإرادة كتالية أو كفعل لاحق على العقل، فإن "شوبنهاور" يرفض هذا التقليد الفلسفي الذي رسخه كل من "ديكارت" (Descartes) وسبينوزا وغيرهم من دعاة العقلانية، والذي إنبنى على فكرة مركزية العقل، ليؤسس فيما بعد تراتبا جديدا، تصبح فيه الإرادة هي السيدة، بينما تنحسر قيمة العقل ووظيفته تتحدد كتابع لرغباتها، عند ضعيف في حكم سيده الأمر المطلق".⁸⁹ وإذا كان العقل في الفلسفات السابقة قد مثل القدرة التي يتجوهر بها الإنسان في الكون، اعتبر غاية الوجود وجوهره، وبأن الكون بأسره خلق من أجله، فإن المعادلة، ستنقلب مع "شوبنهاور"، الذي لم يتوان في الانقلاب على العقل، وثانيا على الإنسان ككائن ظل طويلا يتوهم أنه حيوان عاقل"،⁹⁰ إذا نستشف من خلال هذا أن فلسفة شوبنهاور تحتقر القيم العقلية، وكافة الأنماط العقلانية، وفي مقابل هذا تؤمن فلسفته بقبلية الإرادة وأولويتها على غيرها من النشاطات الإنسانية الأخرى. إلى جانب ذلك، نجد "شوبنهاور" قد شخص أمراض الثقافة الحديثة، فليست الثقافة بمحدداتها جميعا سوى أثر من آثار الإرادة التي تندفع باحثه عن إشباع لفهمها، فضلا عن استلهاها من الفن من أجل نسيان عطش الإرادة، وقد اعتبر شوبنهاور "الفن" أداة الهروب من العالم أو التحرر من أعبائه. وبهذا ندرك جليا أن أفكار "شوبنهاور"، كانت لها أثر كبير في التحول نمط التفكير الغربي، فقد وجد "نيتشه" متغيا في الكثير من أفكاره، ووجد في الفلسفة مثلاً على نموذج الحياة فلسفية الحق، بعيدة عن صخب المشكلات الراهنة،

88 مارك جيمينيز: ما الجمالية؟، ترجمة: شربل داغل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 341-342.

89 عبد الرحمن بدوي: شوبنهاور، بيروت، دار القلم، بيروت، دار الفكر، 2000، المطبوعات، (د.ت)، ص 213-214.

90 كمال البكاري: ميتافيزيقا الإرادة (إرخاء المعنى في الذات والسلطان)، بيروت، دار الفكر، 2000، ص 72.

كما أخذ عنه مباشرة نقد القيم الأخلاقية، والانفتاح على اللامعقول.⁹¹ إذن تحول فلسفي عميق، كشفته لنا أفكار شوبنهاور الفلسفية، التي لا تقل عن سابقتها - الأفكار النيتشوية- وإن اختلفت معها في بعض الجوانب، هذه الأفكار وتلك شكلت ثورة معرفية عميقة غيرت الكثير من الحقائق والمعتقدات والفلسفات التي احتكمت العقل الغربي لفترة طويلة.

الإسهام الفلسفي "لباروخ سبينوزا" وإنتاجه الفكري العظيم تكشفه لنا، الرواية الفلسفية لإرفين يالوم بحد ذاتها، حيث تعرض لنا أحداث الرواية، قيمته مع الطائفة اليهودية، هذا المفكر الجريء الذي عاش في القرن السابع عشر وحيدا في هذا العام من دون عائلته و من دون مجتمع، ألف كتب غيرت العالم، بنزعته الشكوكية خاصة في الدين، توقّع العلمنة، والدولة السياسية الديمقراطية الليبرالية، وظهور علم الطبيعة، ومهد الطريق إلى التنوير، الذي كشف مغالطات والبدع معظم اللاهوتيين، حيث يقول عنهم "إننا نرى معظم اللاهوتيين قد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة بتأويلها قسرا وبترير هذه البدع والأحكام بالسلطة الإلهية".⁹² إن الطموح الإجرامي وحده هو الذي جعل من الدين دفاعا عن بدع إنسانية أكثر منه طاعة لتعاليم الروح القدس، بل إنه هو الذي جعله يستخدم في نشر أشد أنواع الشقاق والكراهية بين الناس، لا في نشر، وذلك تحت قناع الحماس لدين الله والإيمان".⁹³ لذلك فإن حملته تأتي أولا على رجال اللاهوت، الذين يستغلون طابع القداسة، لتجميد حرية الفكر، واستغلال الناس لمصالح سياسية، لذلك كان النقد الجذري للدين بمثابة تحول كبير في الوعي الفكر الغربي وصحته من سباته الميثولوجي المهيمن. وتراءى لنا أهمية فلسفة سبينوزا، في كونها تعالج إشكالات ما زالت راهنة، مثل الإشكال الوجودي، والإشكال الديني والإيتيقي والسياسي، هذه الإشكالات كونت بنية الوعي الغربي وانفتاحه على النقد وحرية الفكر، وجدير بالذكر مثل تلك الموضوعات مازالت تسترعي اهتمام الباحثين المعاصرين، حيث قدمت الفلسفة السبينوزية للفكر عموماً، مكاشفات وآفاقا رحبة لفهم العالم بتعقيداته وصعوباته.

ما تشترك فيه الفلسفات الثلاث هو إعادة طرح الأسئلة الوجودية الكبرى التي استتب عليها الفكر الغربي. فلم يعد الدين والعقل والمنطق والأخلاق من الأمور الراسخة، حيث عرف عن هؤلاء النزعة الشكوكية تجاه المؤسسة العقلية الغربية، بخاصة الجانب العقلي والأخلاقي والديني. والملاحظ بأن "يالوم"، على لسان شخصياته الثلاثة، قد أعاد طرح الأسئلة التي اعتقد أنها محسومة نهائياً. وأعطى لها مبرراً لإعادة النظر فيها، ليست الفلسفة إلا استشكل ما يعتقد المجتمع أنه واضحاً في ذاته، وهذا ما أنجزه هؤلاء الفلاسفة بقلم "يالوم" ذو الملمح النفسي- الفلسفي.

خاتمة: لماذا الرواية الفلسفية ؟

91 جورج إدوارد سبيلة: الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د.ط)، 1986، ص 184.

92 إرفين يالوم: مشكلة سبينوزا، مرجع سابق، ص 07.

93 أحمد العلمي: سبينوزا في الفلسفة والاتيقي والسياسة، إفريقيا الشرق، دار البيضاء، (د.ط)، 2010، ص 346-347.

علاقة الفلسفة بالأدب علاقة أصيلة وحميمية. لم تكن الفلسفة في الابتداء إلا أدبا من نوع خاص، ولم يكن الأدب إلا فلسفة ما. وتاريخ الفلسفة يشهد بأن النصوص الفلسفية الأولى كانت قصائد تستشكل الوجود والحقيقة. لذا وجب التأكيد على القرابة بين الفلسفة والشعر خاصة في فجر الفكر الإنساني، على الرغم من التطور المشهود في الحقلين لصالح تشكل خصوصيات فارقة بينهما، فقد نجد تنابذا بين الأدب والفلسفة في سياقات متعددة. وقد يبدو هذا الانفصال ملائما للدرس الأكاديمي.

بين تأديب الفلسفة وفلسفة الأدب، نعثر على الرواية الفلسفية التي اختارت طريقة مخصصة للتعبير عن المواقف الفلسفية أولا ولنحت أسلوب أدبي ليس كالأدب المألوف. فلا يزال البحث بكثرًا يتطلب دراسات مستفيضة حول مفهوم الرواية الفلسفية.

حقيقة يمكن التمييز بين روح الرواية وجوهر الفلسفة، مثلما يمكن التمييز بين العلم والأدب مثلا. فهناك إشارات تؤكد ذلك، ولنا أنموذجا واضحا في الموقف الأفلاطوني؛ حيث نفى أفلاطون الشعراء من جمهوريته المثالية. ولا نستغرب أن تُنبذ الفلسفة في مملكة الأدب مستقبلا. لكن تجاوز هذا الموقف أمر يسير، على أساس أن أفلاطون ذاته كان كاتباً تراجيديا، وما حوارياته إلا فلسفة مروية ورواية فلسفية. لذا فإن الحديث عن الرواية الفلسفية مشروع كل المشروعية، وتاريخ الفكر الفلسفي يمثل محطات هذا التجسيد المتكرر للرواية. ونجد في التفلسف الوجودي المعاصر مثالا ناضجا لإعادة الوحدة بين الرواية والفلسفة.

إن أية رواية، مهما كان نوعها، تحمل مواقف فلسفية على أساس أنها تتناول مسائل الوجود والقيم خاصة. لكن يجب التمييز بين الرواية التي تنشُد وتبثُّ رؤيا فلسفية، وبين الرواية ذات المقصدية الفلسفية. وما نروم البحث فيه هو الفلسفة القصصية عبر الرواية الأدبية. وهذا الطريق الفلسفي الجديد؛ أي كتابة الرواية الفلسفية، هو الذي يجعل النص الفلسفي منفتحاً على متلقين مختلفي المشارب. لأن الفلسفة، وخاصة بعد التسوير الأفلاطوني، أصبحت في منأى عن العامة، ولا يتلقى الدرس الفلسفي إلا من حَظي بالتسجيل في جمهوريته. في حين أن الأسطورة والأقصوصة والرواية... الخ كانت ولا تزال متاحة للجميع بغض النظر عن المستوى التعليمي، ومن ثمة فإن الحديث عن "الرواية الفلسفية" هو حديث عن تحرير الفلسفة من سجن الأسوار، وإعادتها إلى الفضاء العام، حيث يلتقي بها كل المهتمين أو القراء من جهة، يحاورها الجميع، ويستمتع لمضمونها الإنسان مجردا من تخصصه واهتماماته من جهة ثانية. إن الرواية الفلسفية عودة للفترة السقراطية؛ حيث تنزل من برجها العاجي لتستمع إلى أصوات عامة الناس.

تهدف الرواية الفلسفية إلى نقل الفلسفة من الصورة الكلاسيكية إلى الصورة الرومانسية، مع العلم بأن الكلاسيكية طريقة النخبة في التفكير (كلاسيكوس)، في حين أن الرومانسة، والتي ترتبط اشتقاقيا، بالطريقة الروائية وبالطبقة المتوسطة (رومانوس) عند الرومان القدامى، هي طريقة تفكير الطبقة المتوسطة. لذا فإن التفلسف روائيا أو التقصيص في الفلسفة يهدف أولا وقبل كل شيء إلى نشر الفلسفة وتبسيطها لتكون في متناول الإنسان المتوسط. في حين أن الفلسفة بالمفهوم التقليدي كانت حكرا على الطبقة المفكرة فحسب. لذا فإن الرواية الفلسفية قد اخترقت بعنف التقسيم الأفلاطوني الذي حرم

الفكر على النفوس المتوسطة والدنيا، وهذا النظام الطبقي المغلق هو الذي جعل الفلسفة محصورة في زاوية ضيقة اجتماعية، لذا فالرواية الفلسفية، من حيث هي خلق للطبقات المنفصلة، تعمل على نشر الفلسفة خارج أسوار الطبقة الذهبية العاقلية، إنها تحويل الفلسفة إلى تفكير، وهذا هو الوضع الأصلي عند سقراط قبل أن يسج أفلاطون الفلسفة داخل الأسوار. وبهذا المعنى تحدث هيدجر عن موت الفلسفة وميلاد الفكر Das Ende Der philosophie und die Aufgabdas Denkens الذي ترسم مهامه من جديد. الرواية الفلسفية تسترجع الفلسفة بما هي نمط حياة عفوي بعيدا عن التكلف الميتافيزيقي. أوليس الميتافيزيكا أفلاطونية؟⁹⁴ وهذا ما نلمسه في روايات "يالوم" حيث استطاع إيجاد أصل كل فكرة مهما ظهرت لنا مفارقة للواقع والطرف المخصوص.

ما يمكن أن ندركه بوضوح، من خلال القراءة الفاحصة للروايات الثلاثة، هو أن "يالوم" قد سار على طريقتين مهمين: طريق الفلسفة وطريق علم النفس، وحتى الفلاسفة الذين اختارهم لرواياته قد اظهروا تفوقا كبيرا في الملمح النفسي. لذا نجد أحد أصدقاء "روزنبرغ" في رواية "مشكلة سبينوزا"، وهو فريديش الطبيب نفسي على الطريقة الفرويدية يقول: "الطب النفسي، بخلاف أي مجال آخر في الطب، فإنه يقترب كثيرا من الفلسفة. ومثل الفلاسفة فإننا، نحن الأطباء النفسانيين نجري دراسة منطقية عميقة (...) نسأل عن السبب. ما مصدر هذه المشاعر؟ (...) يخل إلي أن هذا المجال بدأ مع سبينوزا الذي يعتقد بأن لكل شيء سبب، حتى العاطفة والفكر...".⁹⁵ لذا فإن التسمية الدقيقة للجنس الأدبي الذي اتبعه "يالوم" هو "الرواية الفلسفية – النفسية"، والتي تعتمد على إمكانية المزاجية بين علم النفس والفلسفة من أجل الكشف عن مشكلات الإنسان. والحق أن التفكير في التوحيد بين الفلسفة والعلاج الأخلاقي وترويض النفس، ليست بالمهمة الجديدة كل الجدة في التاريخ، إذ عرف الإغريق القدماء، حسب نظرية الفيلسوف الفرنسي بيار هادو، كيفية تحويل الفلسفة إلى طريقة تدريب روحية وأخلاقية من أجل ترميم الحياة وترقيتها لرتبة أحسن. يقول: "كانت الفلسفة، أولا وقبل كل شيء، تقدم نفسها ك علاج لشقاء الجنس البشري. هذا المفهوم مذكور صراحة عند زينوقراط، وعند أبيقور: ينبغي ألا نتوقع أن نجني أي شيء من معرفة ظواهر السماء (...) غير السلام العقلي، وغير طمأنينة وثيقة".⁹⁶ وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن مشروع "يالوم" في الرواية الفلسفية، قائم على خطة إحياء التفلسف القديم من حيث هو علاجي بالأساس.

قائمة المصادر والمراجع

- إبكتيتوس: المختصر، ترجمة عادل مصطفى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
أحمد العلمي: سبينوزا في الفلسفة والاثيقيا والسياسة، إفريقيا الشرق، دار البيضاء، (د.ط)، 2010.

⁹⁴ مارتن هيدجر: نهاية الفلسفة ومهمة التفكير، ترجمة وعد علي الرحية، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2016، ص 53.

⁹⁵ يالوم: مشكلة سبينوزا، مرجع سابق، ص 142-143.

⁹⁶ بيار هادو: الفلسفة طريقة حياة – التدريبات الروحية من سقراط إلى فوكو، مرجع سابق، 385-386.

- أرثور شوبنهاور: العالم إرادة وتمثلاً، المجلد الأول، الجزء الأول، ترجمة سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006.
- إرفين. د. يالوم: عندما بكى نيتشه (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، الطبعة الأولى، 2015.
- إرفين. د. يالوم: علاج شوبنهاور (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، منشورات الجمل، بغداد-بيروت، الطبعة الأولى، 2018.
- إرفين. د. يالوم: مشكلة سبينوزا (رواية)، ترجمة خالد الجبيلي، بيروت: منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2019.
- إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق، القاهرة، دار المعارف، ط 4، 1966.
- أويغن فنك، فلسفة نيتشه، ترجمة إلياس بدوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974.
- باروخ سبينوزا: الأخلاق، ج3، ترجمة: جلال الدين سعيد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1982.
- باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ط)، 1981.
- بيير هادو: الفلسفة طريقة حياة – التدريبات الروحية من سقراط إلى فوكو، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019.
- جورج إدوارد سبيلة: الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د.ط)، 1986.
- ريدريك نيتشه: شوبنهاور مريباً، ترجمة قحطان جاسم، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016.
- سمير الزغبى: نيتشه – الفن والوهم وإبداع الحياة-، بيروت، دار التنوير، 2009.
- السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1994.
- عبد الرحمن بدوي: شوبنهاور، بيروت، دار القلم، بيروت، دار الفكر، 2000، المطبوعات، (د.ت)، ص 213-214.
- فرانسو مورويبار: سبينوزا والسبينوزية، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008.
- فريدريك نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: علي مصباح، كولونيا، بغداد، (د.ط)، 2008.
- كمال البكاري: ميتافيزيقا الإرادة (إرخاء المعنى في الذات والسلطان)، بيروت، دار الفكر، 2000.
- لوكريتيوس: في طبيعة الأشياء، ترجمة علي عبد التواب علي وصلاح رمضان السيد وسيد أحمد صادق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018.
- مارتن هيدجر: نهاية الفلسفة ومهمة التفكير، ترجمة وعد علي الرحية، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2016.
- مارك جيميني: ما الجمالية؟ ترجمة: شربل داغل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.
- C.C.J. DE Bunsen: Dieu dans l'histoire, traduit A. Dietz, édition Librairie Académique, Paris, 1868.
- Friedrich Nietzsche : Ainsi parlait Zarathoustra – un livre pour tous et pour personne, traduit par Henri Albert, Presses de la renaissance, Paris, 1958.
- Friedrich Nietzsche : La naissance de la tragédie, traduit par Geneviève Bianquis, éditions Gallimard, 1986.
- Friedrich Nietzsche : La philosophie à l'époque tragique des grecs, suivi de Sur l'avenir de nos établissements d'enseignement, traduits par Jean – louis Backes, Michel Haar et Marc B. de Launay, édition Gallimard, Paris, 1975.
- Friedrich Nietzsche : Aurore – pensées sur les préjugés moraux – fragments posthumes début 1880- printemps 1881, traduit par Julien Hervier, Œuvres philosophiques complètes, tome IV, éditions Gallimard, Paris, 1980.
- Lou Andreas-Salomé: Friedrich Nietzsche à travers ses œuvres, traduit par Jacques Benoist-méchin, éditions Grasset, Paris, 1992.
- Pierre Klossowski : Nietzsche et le cercle vicieux, édition Mercure de France, 1978.
- Spinoza, Ethies, on introduction, New York, Cambridge, uni pressn, 2006.